جامعة محمد بوضياف - المسيلة -
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم التاريخ

محاضرات

حول

تاريخ المغرب الحديث

من القرن 16 إلى القرن 19 م

د. حسين محمد شريف

السنة الجامعية 1437/1438 هـ

2017/2016 م

الفهرس

- المغرب الإسلامي الحديث في مواجهة الغزو الأيبيري.....ص 3.
- كيفية انضمام الجزائر للدولة العثمانية عام 1518م.....ص 9.
- التطور السياسي للجزائر في العهد العثماني 1518-1830م.....ص 21.
- النظام الإداري في الجزائر في العهد العثماني 1518-1830م.....ص 30.
- النظام العسكري العثماني بالجزائر في العهد العثماني 1518-1830م.....ص 35.
- العلاقات الدولية للجزائر في العهد العثماني 1518-1830م.....ص 41.
- الفتح العثماني لليبيا 1551م.....ص 60.
- الفتح العثماني لتونس عام 1574م.....ص 72.
- الدولة السعدية في المغرب الأقصى.....ص 85.
- الدولة العلوية في المغرب الأقصى.....ص 101.

المغرب الإسلامي الحديث في مواجهة الغزو الأيبيري

مقدمة :

ساد المغرب الإسلامي الضعف السياسي والعسكري "المرينيون" في فأس وبنوزيان في تلمسان"، وبنو حفص في تونس". والظاهر أن هذه الدول كانت تضم المدن وضواحيها فقط، ففي الشمال مدن ساحلية مستقلة وفي الواحات مدن مستقلة كذلك، هذا بالإضافة إلى المشيخات والإمارات...

الضعف السياسي أدى إلى تقسيم بلاد المغرب الإسلامي ونشوب حروب بين "دويلاته" حروب أهلية إن صح التعبير بين أبنائه ". .

وقد جعلت هذه الوضعية الكارثية الإسبان والبرتغاليين يطمعون في بلاد المغرب التي أصبحت مثل الثمرة اليانعة في منظرهم فاندفعوا إلى قطفها تحت ذرائع عديدة منها الدينية لأن كل من إسبانيا والبرتغال تدعيان مسؤولية تمسيح العالم وواجبهم الأول يكمن في محاربة الإسلام وتعويضه بالمسيحية خاصة بعد استيلائهم على آخر معقل للمسلمين في الأندلس "غرناطة في 1 يناير 1492م". عندئذ نقلوا حربهم إلى بلاد المغرب الإسلامي رافعين شعار "حروب الاسترداد". وهناك عامل آخر وهو استراتيجي يتمثل في احتلال مراكز رئيسية وهامة في شمال إفريقيا لخنق المسلمين المغاربة والاستيلاء على أراضيهم.

مرحلة التنفيذ:

بادر البرتغاليون باحتلال مراكز ساحلية بالمغرب الأقصى "أولا" شمالا" ثم جنوبا ثانيا، " أو بدءا من الشمال ثم الجنوب".

الأوروبيون في القرن 16م بقدر ما كانت بلاد المغرب ثمرَ بمرحلة الانحطاط بقدر ما كان الأوروبيون يمرون بفترة وحالة نهضة وانتعاش حيث عاشوا ثورة اقتصادية وفنية واكتشافات جغرافية، وتوسع استعماري ومبادلات تجارية، وكان على رأس وزعامة الدول الغربية "اسبانيا والبرتغال" اللتان بدأتا تتنافسان فيما بينهما عندما دخلتا.

الميدان الاقتصادي والاستعماري:

أثارت مشكلة السباق بين البرتغال واسبانيا لاحتلال المغرب الإسلامي صراعا بين الدولتين كاد يؤدي إلى الحرب فيما بينهما غير أن البابا تدخل في الأمر من أجل اقتسام النفوذ في العالم. " فيما بينهما وفقا لمعاهدة توردي سيلاس سنة 1495م. وأعقب ذلك الاتفاق على اقتسام المغرب الإسلامي وفقا لمعاهدة فيلا فرانكا عام 1509م والتي نصت على منح المغرب الأقصى للبرتغال مقابل حصول اسبانيا على المغرب الأوسط "الجزائر". وهكذا ومع بداية القرن 16م كانت دولة البرتغال تملك في المغرب الأقصى مدن سبتة وطنجة وأصيلا وأزمور والصويرة وآسفي مع كامل مقاطعة دكالة الممتدة بين مصب نهري أم الربيع وتنسيقت على المحيط الأطلسي، أما الأسبان فقد ملكوا بالبلاد المغربية صخرة بادس، فاليس، ومدينة مليلة .

وبعد ذلك انطلق الأسبان لتطوير حريهم الصليبية ضد الجزائر، حيث بدأوا باحتلال بعض المراكز منها المرسي الكبير عام 1505م، لماذا يا ترى ؟

لأنه أحسن ميناء ومكان، ولأنه محمي من الرياح، وقريب من الشواطئ الاسبانية، ولخوفهم من عودة المسلمين للأندلس مرة أخرى، وهم الذين قضوا طوال القرن 16م وهم يحملون في العودة إليها "الأندلس"، وبعد المرسي الكبير احتلوا وهران عام 1509م وبجاية 1510م ثم طرابلس في نفس السنة (1509م) ثم احتلوا صخرة البنيون وهي من أهم صخور الجزائر العاصمة، وجعلوا من البنيون حصنا معززا لخلق النشاط البحري لها. عموما لقد اختار الأسبان المراكز الحساسة، والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل كانت هناك مقاومة ؟ أم أن الأسبان وجدوا المكان فارغا ؟

فوهران والمرسي الكبير كانتا تابعتان للدولة الزيانية التي كانت ضعيفة، أما المقاومة فقد كانت ضعيفة بل رمزية والدولة كانت غير قادرة على المقاومة لأنه لم يكن لها جيش وطني بالمعني الحديث لأن القبائل هي التي كانت تزود الدولة بالجيوش، وبحكم أن الدولة كانت ضعيفة أفلتت هذه القبائل من يد الزيانيين وأعلنت عصيانها، ووقع نفس الشيء بالنسبة للدويلات الأخرى. استفاد الأسبان من هذا الوضع وهنا يشير الكثير من المؤرخين إلى أن سر نجاح الأسبان في غزوهم لبلاد المغرب الإسلامي يعود إلى الأسلحة النارية كالمدافع الاسبانية والبنادق بينما المسلمون كانوا يحاربون بالسيوف والرماح وبعض البنادق البدائية "ومما يجب الإشارة إليه كذلك أن الصراع الاسباني للمغربي في هذه الفترة أخذ صبغة دينية صليبية".

وما أن نزل الأسبان على المدن الساحلية الجزائرية وغيرها حتى بنو الحصون المعززة البناء ووضعوا على سطوحها المدافع مما جعل كل المحاولات الإسلامية تبوء بالفشل "وهي ظاهرة أولى". العلماء المسلمون لاحظوا آنذاك أن الدويلات المغربية "الحفصية، الزيانية، المرينية" العاجزة عن التصدي للنصارى كانت آفة على الإسلام والمسلمين فأخذوا ينظمون المقاومة بأنفسهم.

الجزائر وضواحيها:

اسميا كانت تابعة للزيانيين وفي الواقع كانت في يد الثعالبة "قبيلة الثعالبة" ومنهم "سيدي عبد الرحمن الثعالبي" فقد تضررت المدينة كثيرا بعد استقرار الأسبان في صخرة البنيون. "كان الأسبان يبعدون عن العاصمة ب 300م فقط" حيث شل نشاطها البحري وظلت تحت ضربات أو طلقات المدفعية الاسبانية، ومن هنا بدأ الأسبان يفكرون فيما وراء هذه مدن الساحلية خاصة عندما أدركوا بأن الأهالي كانوا عاجزين عن مجابتهم هذا في بلاد المغرب الإسلامي .

أما في المشرق العربي فقد ظهرت الدولة العثمانية التي كانت تسعى إلى ضمه إلى نفوذها بعد عجز دويلاته في الصمود أمام ضربات البرتغاليين في البحر الأحمر والخليج العربي.

وشاءت الأقدار أن جاء إلى جزيرة جربة التونسية الإخوة بربروس الذين جعلوا منها قاعدة بحرية لهم، حيث انطلقوا منها لغزو المراكز المسيحية، وقد اشتهروا بجهادهم البحري وذاع صيتهم بين المسلمين فا ستجد بهم في بادئ الأمر السلطان الحفصي مما جعل الإخوة بربروس ينشؤون قاعدة ثانية لهم في تونس مقابل تقديم خمس الغنائم للسلطان الحفصي.

زاد جهادهم وانتصارهم على الأساطيل المسيحية الأمر الذي جعل خبرهم يصل إلى سكان الجزائر الذين طلبوا الاستجداد بهم للتصدي لهجمات الأسبان على بلادهم، وعندئذ لب الإخوة بربروس طلب الجزائريين ففكروا بعد ذلك الرحيل من تونس حيث عملوا على تحرير المدن الشرقية للجزائر بدءا من جبل التي حرروها من الجنويز عام 1512م وجعلوا منها قاعدة لأسطولهم واستقروا فيها، ثم لبوا طلب الإغاثة من أهالي مدينة الجزائر وعلى رأسهم "سالم التومي" وهنا عرفت الجزائر مجيئي عنصرين غريبين عنها هما العنصر التركي المسلم والعنصر الاسباني المسيحي وبذلك عرف المغرب الإسلامي صراعا بحريا وبريا اسبانيا عثمانيا.

ففي عام 1516م تحول الإخوة بربروس ونزلوا بمدينة الجزائر " وهنا يشير الكثير من المؤرخين إلى أن هذه السنة تعتبر سنة الوجود العثماني بالجزائر وذلك لتمركز الإخوة بربروس بها وتحويل الجزائر إلى قاعدة عثمانية " .

في المغرب الأقصى: نجد ثلاث سلطات برتغالية، مرينية وأخرى وطاسيه هذا بالإضافة إلى المشيخات والإمارات المستقلة.

في الجزائر:الإسبان في وهران والمرسي الكبير وجبل بالإضافة إلى المشيخات والإمارات المستقلة وسلطة جديدة تتمثل في الأتراك.

في تونس: دولة حفصية، إمارات ومشيخات مستقلة ومتناحرة هذا الوضع كله زاد بلاد المغرب ضعفا وانهيارا .

نتائج الصراع الأيبيري العثماني :

على أن نتائج الصراع الذي تميز به القرن 16م تمثلت بالخصوص بتوقف الخطر الخارجي يطرد الأسبان والبرتغاليين من أغلب المراكز الساحلية التي كانوا قد احتلوها.

كانت هناك انتصارات حالت دون متابعة حروب الاسترداد في بلاد المغرب وذلك بانهزام شار لكان عام 1541م وكذلك طردهم نهائيا من تونس عام 1574م وانهزام البرتغاليين في معركة وادي المخازن عام 1578م .

كما نتج عن ذلك ظهور كيانات سياسية ببلاد المغرب العربي التي كانت موحدة قبل ذلك في عهد الموحدين، والتي أصبحت تشكل به دولة نواة الدول الحديثة فانضمت الجزائر وتونس وطرابلس إلى الخلافة العثمانية بينما بقيت المغرب الأقصى تحت سلطة الوطاسيين فالسعديين فالعلاويين مستقبلا.

وكذلك نلاحظ بأن المغرب في مطلع العصور الحديثة عرف انهيارا حضاريا وتبلورا اجتماعيا ظهر في شيوخ الزوايا والطرق الدينية التي سوف تتحكم في الأحداث وتؤثر في تاريخ المغرب مدة طويلة.

ومن خصائص القرن 16م وأهم حوادثه:

زوال الدويلات المغاربية الثلاث " الدولة الوطاسية زالت على يد بني سعد في منتصف القرن 16م، الدولة الزيانية بتلمسان زالت عام 1552م على يد الأتراك العثمانيين، الدولة الحفصية في تونس زالت على يد العثمانيين عام 1574م " .

إن المغرب الإسلامي عاش القرن 16م تحولات سياسية كثيرة منها

- احتلال برتغالي اسباني لأراضيه.

- قدوم الأتراك العثمانيون.
- زوال الدويلات الثلاث السابقة الذكر.
- صراع عثماني اسباني برّا وبحرا كان في صالح العثمانيين، وفشل السياسة الاسبانية بفضل انتصار الإخوة خير الدين بريروس" عليهم في البنيون وطردهم قهرا منه عام 1529م ثم طردهم من بجاية عام 1555م على يد صالح راييس وطردهم نهائيا من تونس عام 1574م على يد سنان باشا وقبلها طرابلس عام 1551م.
- بعض الحروب الهامة لم ينتصر فيها الأسبان إطلاقا بل كانت كوارث عليهم عام 1516م عندما شنوا غارتهم على الجزائر في عهد عروج قد قتل في عام 1517م "
- فشلهم كذلك في غارتهم الثالثة على الجزائر بقيادة الإمبراطور شار لكان الذي جاء ولكنه هزم شرّ هزيمة وقد أثرت فيه هذه الأخيرة تأثيرا كبيرا ولم ينقذه من حسرته إلا الموت عام 1556م.
- _ ينتهي القرن 16م بفوز الأتراك العثمانيين برا وبحرا وطرد النصارى من المغرب الأوسط والأدنى ماعدا وهران والمرسى الكبير نظرا للتعزيزات الكبيرة التي أقامها الأسبان فيهما.

كيفية انضمام الجزائر للدولة العثمانية عام 1518م

الظروف المحيطة بظهور الإخوة بربروس في الجزائر:

كانت الجزائر في بداية القرن 16 تعيش ظروفًا صعبة يميزها الضعف والتقهقر نتيجة صراع أمراء بني زيان حول السلطة وتراجع نفوذهم وانحصارهم في تلمسان وضواحيها فقط هذا فضلًا عن صراعهم مع الدول المجاورة كبني مرين في المغرب وبني حفص في الشرق¹، هذا ما شجع الإسبان على القدوم نحو المدن الساحلية الجزائرية خاصة بعد سقوط آخر معقل للمسلمين غرناطة في يناير 1492م، لذلك عملوا على نقل الحرب إلى بلاد المغرب خوفًا من عودة المسلمين إلى الأندلس مرة أخرى².

وبعد شنّ حملات سريعة متتالية تم السيطرة عليها واحدة تلو الأخرى حيث استولوا على المرسى الكبير عام 1507م ثم وهران سنة 1509م وبجاية وعنابة عام 1510م³.

أما الجزائر وتلمسان ففضل كل من الشيخ سالم التومي الذي تنازل للإسبان على أكبر الجزر الصخرية لمدينة الجزائر "برج لفنار" الواقع في مدخل مدينة الجزائر⁴، والملك الزياني "أبوحمو الثالث" بتلمسان الذي أعلن الطاعة والولاء للإسبان، ونفس الشيء قامت به مدينتي مستغانم ومزغان بالناحية الغربية عام 1511م⁵.

¹ - أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي: الثغر الجمانى في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة الجزائر، 2013، ص 16.

² - عائشة غطاس، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية-الجزائر - 2007، ص 13.

³ - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي 1500، 1830م ج1، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان 1998م، ص، 142.

⁴ - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاث مئة سنة بين الجزائر وإسبانيا، 1492-1792م الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1976م، ص 127.

1- يحي بوعزيز الموجز في تاريخ الجزائر " تاريخ الجزائر الحديثة" ج2، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 2007، ص، 10.

أما تنس ففضلت الخضوع لهم قبل احتلال وهران وبذلك احكم الإسبان قبضتهم على السواحل الجزائرية والشرقية والغربية¹.

وفي تلك الأثناء بالضبط وصلت أصداء انتصارات الإخوة بربروس وجهادهم ضد الكفار في الحوض الغربي للمتوسط، خاصة محاولة إنقاذهم لبواخر المسلمين الفارين من الاضطهاد الإسباني وظهورهم كقوة مضادة للقرصنة الأوربية في البحر الأبيض المتوسط².

جاء الإخوة بربروس إلى بلاد المغرب وهم أربعة "إسحاق وخسرف وهناك من يقول خضر أو خير الدين وعروج ومحمد إلياس"³.

بعد انهزام الأمير العثماني "قرقود" أو قرقط الذي كان يخدمه عروج في صراعه مع أخيه سليم لذلك هربوا غربا واستقروا في تونس ووقع اختيارهم أول الأمر على جزيرة جربة⁴.

استأذن عروج السلطان الحفصي بأن يقيم فيما بعدها ما قدم له الهدايا فإذن له بذلك واشترط عليه أن يقدم له خمس الغنائم "لخرينة بين المال" وأن لا يتخاصموا مع سكان المنطقة، ومنحهم مكانا في خلق الوادي يسمى جالطة⁵.

أما أول احتكاك للجزائريين بالإخوة بربروس كان عندما استجد بهم علماء وأعيان مدينة بجاية، لما كانوا يسمعون عن انتصاراتهم في عرض البحر وشواطئ الأندلس⁶، وهو ما عبّر عنه المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف قائلا: العلماء والأعيان من أهل بجاية يستمر خونه في إنقاذها من

2- عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 14.

3- عمار بوحوش التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت لبنان، 1997، ص 53.

4- عائشة غطاس، المرجع السابق، ص 20.

5- عزيز سماح التر، الاتراك العثمانيون في أفريقيا الشمالية، ترجمة محمد علي مراد دار النهضة العربي " ط1" بيروت لبنان 1409هـ / 1989م، ص 43.

5 - نفسه.

6 - عمار بوحوشن المرجع السابق، ص 56.

يد العدو طالبين استرجاعها من الاسبان...¹ في ذراعه مما اضطرهم للانسحاب والعودة إلى تونس، أما عروج فقد أدت إصابته إلى بتر يده.

تظن عروج بعد الهزيمة التي ألحقت به أنه لن يتمكن من فتح بجاية وهو في قاعدتها البعيدة بخلق الوادي². لذلك صمّم على فتح جيجل التي احتلها الإسبان عقب إخفاق عروج في محاولته لفتح بجاية، وأخرجوا منها سكانها الذين استنجدوا بالإخوة بربروس وانظموا إليهم بأعداد هائلة عارضين عليهم خدماتهم مما ساعدهم على فتح المدينة بسهولة عام 1514م³.

- بعد استقرارهم بجيجل توجه خير الدين بربروس لإنقاذ المسلمين الهاربين من الاضطهاد الإسباني في الأندلس ونقلهم إلى شمال إفريقيا⁴.

- حيث بدأ هجومه على " مينورقة" التابعة لجزر البليار واحتل بعض الأبراج ودمر وخرب وحقق انتصارات كبيرة وحصل على غنائم هائلة أرسل جزءا منها إلى السلطان العثماني " سليم الأول 1512-1520 رفقة الرايس كمال الذي استحسنها فأرسل بدوره إليهم الأسلحة والذخيرة⁵.

- جاءت مكافأة السلطان سليم الأول في الوقت الذي كان فيه عروج وإخوته يستعدون للقيام بحمله ثانية على بجاية، بعدما استنجد شيوخ القبائل وأمير جبل كوكو " أحمد بن لقاضي" على إعادة الكرة على الإسبان.

- بدأت المحاولة الثانية لتحرير مدينة بجاية في شهر أوت 1514م بقيادة عروج الذي حاصرها قرابة ثلاثة أشهر، لكن الظروف لم تساعد مرة ثانية لأن ذخيرته نفذت من قواته لذلك طلب العون من السلطان الحفصي "مولاي محمد" لكنه رفض تزويده بما يحتاجه من

1 - احمد بن أبي الضياف.

2 - عائشة غطاس، المرجع السابق

3 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 151.

4 - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 12.

5 - عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 83.

مساعدات مما إضطره للانسحاب منها بعدما أسر 600 من الإسبان¹، واحرق اثني عشر سفينة ضخمة كانت راسية في النهر على بعد ثلاثة أميال من بجاية². وفي هذا الصدد يقول أحمد بن أبي الضياف في كتابه اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. "... وضيق عليها الحصار ولما اشرف على الفتح نفذ ما عنده من البارود، فكاتب السلطان الحفصي بتونس وهو محمد بن الحسن يستمد منه البارود، فتغافل عنه، تخوفا على ملكه المشرف على الانقراض، والتقدير وراء التدابير..."³.

- وفي سنة 1516م كان عروج وإخوته يسعدون للقيام بحملة ثالثة على بجاية ولما وصلت أنباء وفاة ملك إسبانيا فرديناندو رأى سكان مدينة الجزائر أن الوقت قد حان للتخلص من إسبانيا لذلك استجدوا بالإخوة بربروس وطلبوا المساعدة منهم للتخلص من الوصاية الإسبانية عليهم نتيجة خضوع الشيخ سالم التومي للإسبان وطلبه المساعدة منهم من أجل القضاء على الثورة التي قامت ضدّ حكمه⁴.

- و بعدما اجتمع الأهالي مع سالم التومي الذي قبل بدعوة الإخوة بربروس من أجل إخراج الإسبان من قلعة " البنيون " بتشجيع من الشيخ أحمد بن القاضي أرسلوا إلى عروج رسالة يلتمسون فيها مساعدتهم⁵.

- كان عروج آنذاك في مدينة جيجل عندما بلغه طلب سكان مدينة الجزائر فتوجه إليها رفقة جنوده الذين قدرّ عددهم بثمانمئة تركي وما جنده من القبائل الجزائرية، وراسل أخاه خير الدين الذي كان على رأس أسطول يشتمل على ثمانمئة عشر جفنا وثلاث بواخر ليلحق به إلى الجزائر العاصمة⁶.

1 - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص18.

2 - حسن الوزان، وصف أفريقيا ترجمة محمد دجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان 1983-ض 39.

3 - أحمد بن أبي الضياف المصدر السابق ص

4 - عزيز سامح التر المرجع السابق، ص 50.

5 - نفسه ص 51.

6 - مبارك بن محمد الهميلالي...الميلي تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج-3- مكتبة النهضة الجزائرية، 1964م

- اتجه عروج أولا إلى شرشال وافتكها من يد قارة حسن الذي أراد منافسته وتضييق الخناق عليه حيث عرض عليه الاعتراف بسلطته¹.
- فقام عروج بقطع رأسه ثم عاد إلى الجزائر أين استقبله أمراء وأعيان ووجهاء المدينة وأعداد كبيرة من أهلها ورحبوا به ترحابا حارا ووعدوه بالوقوف إلى جانبه². وبايعوه أميرا للجهاد وكان ذلك من أبرز أحداث الجزائر في سنة 922هـ-1516م
- باشر عروج بقصف القلعة لمدة عشرين يوما قصفا مستمرا وبدون انقطاع³، لكن ضعف مدفعيته لم يترك أثرا على جدار القلعة مما جعل الأهالي يفقدون ثقتهم بهم.
- إضافة إلى سؤ معاملة الجنود الأتراك للجزائريين⁴.
- فدبر سالم التومي رفقة بعض الأعيان مؤامرة ضد الأتراك لكن عروج تقطن لها في المهد، فقتل التومي بيده داخل حمام منزله⁵، وأعلن نفسه ملكا على الجزائر⁶.
- بعد ذلك توجه الإخوة بربروس للاستيلاء على المدن الجزائرية بالتتابع فاستولى عروج على المدينة ومليانه، وتنس في حين استولى خير الدين على مدينة دلس ونواحيها.
- و في 30 سبتمبر 1516 أرسل الكاردينال كسيماناس ximenes قوة بحرية إلى ميناء الجزائر مؤلفة من خمسة وثلاثين مركبا، تحمل ثلاثة آلاف رجل بقيادة ديبغودي فيرا ونزل بناحية باب الوادي قريبا من المكان الذي بني فيه باب عزون في وقتنا الحاضر⁷.
- و بعد يومين حدثت زوبعة بحرية فأصدر "ديبغودي فيرا" أمرا بالعودة إلى الأسطول في ذلك الحين خرج عروج رفقة جنوده وهجموا على الجيش الإسباني وأنضم إليهم أعراب بنو

1 - عزيز سامح التر المرجع السابق، ص 50.

2 - نفسه، ص 53.

3 - بسام العسلي، خير الدين بربروس "ط1" دار النفائس، بيروت لبنان، 1400-هـ، 1980م

4 - مبارك بن محمد الهيلالي الميلي، المرجع السابق، ص 46.

5 - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص 19.

6 - وليام شالر، مذكرات وليام شالر، قنصل أمريكا في الجزائر 1816 - 1824م: تعريب وتقديم إسماعيل العربي، الشركة

الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، 1982- ص 40

7 - عمار عمورة، الموجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة، الجزائر، 2002م، ص 89

سالم وألحقوهم هزيمة نكراء ولم ينجح منهم إلا نحو الألف جندي أما المراكب البحرية فقد اتلفت الزوابع نصفها¹

- بعد ذلك توجه عروج إلى مدينة تنس رفقة أخيه خير الدين وقاما بإخضاعها بعد أن قتل أميرها مولاي عبد الله الزياني الذي وعد الإسبان بتقديم المساعدة والدعم سنة 1516².
- ولم يستقر بهما المقام بها حتى جاءهم وفد كبير من مدينة تلمسان يطلبون من عروج المساعدة للقضاء على السلطان أبي حمو الثالث الذي استولى على عرش ابن أخيه أبي زيان، وتحالف مع الإسبان، كما أثقل عليهم بالضرائب³.
- لبي عروج نداء أهالي تلمسان بكل سرور لأنه كان يتشوق لذلك بعدما ترك أخاه خير الدين على مدينة الجزائر⁴، وأثناء توجهه إليها سلك الطريق الواقعة شرق وهران وعندما وصل إلى قلعة بني راشد وضع عليها حامية تضم ستمائة مقاتل⁵، وهناك من يقول ثلاثمائة جندي تحت قيادة أخيه إسحاق للحفاظ على طريق رجوعه⁶.
- لما بلغ نبأ سيرعروج إلى تلمسان هرب أبو حمو الثالث إلى فاس ثم إلى الحامية الإسبانية بوهران، وقبل وصوله إليها بأربعة: فراسخ: وفي سهل أربال أقام أبو حمو الثالث معسكره أين التقى بعروج ورغم قوته وضخامة جيشه إلا أن عروج استطاع أن يتغلب عليه بسهولة⁷، ولاحقة حتى تلمسان وقد حاول أبو حمو دخول المدينة لكن الأهالي أغلقوا أبوابها ومنعوه من الدخول، ولما وصل عروج فتحوا له الأبواب واستقبلوه بترحاب⁸.

1 - مبارك بن محمد.... المرجع لسابق، ص 46.

2 - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 186.

3 - MAHFOUD kaddache I; Algerie durant la periode ottomane office des publications universitaires alger - page09

4 - محمد بن عمرو الطمار تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1984م، ص 299.

5 - نفسه، ص 230.

6 - مبارك بن محمد الهيلالي الميلي: المرجع السابق: ص 47.

7 - بسام العسلي: المرجع السابق: ص 103.

8 - عزيز سامح الثر المرجع السابق، ص 61.

- بعد دخول المدينة نصّب عروج أبا زيان اميراً على تلمسان لكنه سرعان ما أعلن تمرده عليه مما أجبره على قتله وأعلن نفسه حاكماً على تلمسان¹.
- و في تلك الأثناء كان أبا حمو قد جمع بعض اشقات قواته الممزقة ومضى بها إلى مدينة فاس ثم إلى الحامية الإسبانية بوهران التي دعمته بقوة عسكرية بلغ عددها عشرة آلاف جندي هذا إضافة إلى جموع الأعراب الذين انظموا إليه².
- في شهر يناير 1518م تمكنت هذه القوة من الاستيلاء على قلعة بني راشد وقتلوا الحامية التركية بما فيها إسحاق بن يعقوب وواصلوا السير إلى تلمسان حيث فرضوا عليها حصاراً دام ستة أشهر سقطت خلالها تلمسان في يد الإسبان³. مما اضطر عروج للفرار رفقة جنوده حاملاً معه كنوز المدينة إلا أن الإسبان لحقوا به ودارت معركة بينهم بالوادي المالح بنواحي عين تيموشنت استشهد خلالها عروج⁴، عام 1518م، بعد ما وضع أسس الدولة الجزائرية الأولى.
- خلف خير الدين أخاه عروج ووجد نفسه في وضعية حرجة وأصبحت الأخطار تهدده من كل جانب في الداخل والخارج، زيادة على الخطر الإسباني الذي يحدق به بعدما تمكن من القضاء على أخيه في تلمسان ورفض أمير تونس الحفصي تقديم المساعدة وظهر سوء نيته عندما رفض تقديم الإمدادات لعروج أثناء الحصار الثاني على بجاية عام 1515 وعداء السعديين له.

1 - بسام العسلي: المرجع السابق: ص 104.

2 - نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العصر التركي، ط2، دار الحضارة الجزائر، ص 55

3

4 - ناصر الدين سعيدون، تاريخ الجزائر في العهد العثماني: ويلييه ولايات المغرب العثمانية " الجزائر: تونس، طرابلس الغرب" ط2" دار البصائر الجزائر 2013، ص 29.

- تمرد عليه أحمد بن القاضي في جبل كوكو، وخرجت عن سلطته مدن شرشال وتنس
أما بنوزيان فقد تواطوا مع الإسبان ضده¹

كيفية إلحاق الجزائر وارتباطها بالدولة العثمانية عام 1518م:

أمام الظروف الصعبة السابقة الذكر قرر خير الدين بربروس مغادر الجزائر والعودة إلى
اسطنبول عاصمة الخلافة للحصول على أسطول جديد يساعده على متابعة جهاده في سبيل الله
في البحر²، لكن أعيان مدينة الجزائر وعقلاؤها ألحوا عليه بالبقاء في المدينة ويذكر ابن ميمون
الجزائري في هذا المضمار على لسانهم قائلا: "... فقالوا كلهم له أيها الأمير لا تطيب أنفسنا
بفراقك ولا نسمح لك بذلك فالله في أمة سيدنا محمد "ص" فإن الله يسألك عنهم..."³.

عندئذ عرض عليهم فكرة إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية حتى تجد نوعا من الحماية الدولية
خاصة وأن السلطان سليم الأول قد بلغ أوج قوته وعزته آنذاك فقد ضم إليه مكة والمدينة واستولى
على مصر والشام وأضاف لنفسه لقب الخليفة⁴.

وعليه ليس هناك من هو أحسن منه ليكون دعما لهم فقبل أهل المدينة لهذا الرأي بما أنه الحلّ
الوحيد الموجود أمامهم، ولذا أرسل خير الدين رسالة إلى السلطان سليم باسم الأعيان والفقهاء
والأمة والتجار والأمناء وكافة سكان الجزائر العامرة⁵. تعرب عن رغبتهم في الدخول تحت طاعته

¹ - بسام العسلي، المرجع السابق، ص 107.

² - محمد بن رقية التلمساني، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية رقم 1626

³ - فريد بيك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي ط1، دار النفائس بيروت لبنان 1981م، ص 192،
195.

⁴ - رسالة أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م، ترجمها وحققها عبد الجليل التميمي ونشرها في المجلة
التاريخية العدد، 6، تونس، جويلية، 1976، ص، 116-120.

⁵ - رسالة أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان: سليم الأول سنة 1519 سنة 1519م ترجمها وحققها عبد الجليل التميمي ونشرها في
المجلة التاريخية العدد: 6- تونس، جويلية 1976، ص 116 - 120

ويتعهدون بذكر اسمه في الخطة والسكة مع وفد بقيادة حاجي أو الحاج الحسين أو حسين¹، على اختلاف المصادر.

- استجاب السلطان العثماني سليم الأول لطلب أهالي مدينة الجزائر بإرسال ألفين من الإنكشاريين الأتراك²، وكميات ضخمة من الأسلحة والذخائر والتجهيزات الحربية ودعمهم بأربعة آلاف متطوع.

- و أرسل إلى حكام تونس وتلمسان يحذرهم من الاعتداء على الجزائر، كما عين خير الدين بربروس أول حاكم على الجزائر بلقب باي لارباي أي حاكم الحكام³، أ أمير الأمراء كما هو شائع في معظم المصادر التاريخية⁴،

- و هذا ما مكنه من التغلب على الجيش العثماني بمنطقة: فليسات أم الليل" ليواصل زحفه إلى مدينة الجزائر ويستولي عليها سنة 1520⁵،

و يشير ابن أبي الضياف في هذا الصدد قائلاً: "...فركب متن الفساد والفتنة بين نواب خير الدين..."⁶

- أما خير الدين فقد انسحب إلى قاعدته القديمة جيجل وبقي فيها حوالي ست سنوات من 1521-1527م استغلها في إعادة بناء أسطولها والقيام بهجمات على السواحل الأوربية المطلة على البحر الأبيض المتوسط مثل: إيطاليا، إسبانيا وفرنسا ثم أرسل إليه السلطان

1 - ناصر الدين سعدوني المرجع السابق، ص 28.

2 - وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زيادية دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر 2006، ص 45.

3 - بسام العسلي، المرجع السابق، ص 108.

4 - عزيز سامح الثر، المرجع السابق، ص 73.

5 - عمار عمورة، المرجع السابق، ص 90.

6 - أحمد، بن أبي الضياف، المصدر السابق.

* 1525م تحالف السلطان سليمان القانوني مع فرنسا وكان هذا التحالف يقتصر على قبول الباب العالي تقديم المساعدات لملك فرنسا فرانسوا الأول الذي وعده بمحاربة ملك المجر الذي تحالف مع شارل لكان ضد فرنسا حتى يتمكن هذا الأخير من الإنتصار وهو ما قام في سنة 1526م، " أنظر محمد فريد بك المحامي المصدر السابق ص 209"

سليمان القانوني والأرجح أنه راسله في سنة 1525م أن يتوقف عن مهاجمة مراكب الفرنسيين وشواطئهم ليحول خير الدين كل قواده إلى شواطئ اسبانيا لينتقم بذلك لمسلمي غرناطة¹

كما قام بالاستيلاء على المدن المتبقية من الجزائر كالقل وقسنطينة عام 1521 وعنابة 1522 والحضنة والقبائل ومنتجة عام 1525 وفي عام 1527 عاد إلى مدينة الجزائر وذلك بطلب من أهلها ، الذين عانوا من جور ابن القاضي².

وبمساعدة سلطان بني عباس عبد العزيز تم استرجاعها بعدما شن حملة عسكرية ضد "برج لفنار" المعروف بقلعة البنيون" استغرقت ستين يوما من القتال ليتمكن من انتزاعها نهائيا من يد الإسبان عام 1529م

وقام بتحويلها إلى ميناء بحري لحماية السفن الجزائرية الراسية على السواحل من العواصف والرياح الشمالية الغربية.³

لكن الظاهرة أن الإسبان لم يفشلوا من الهزيمة السابقة حيث قاموا بهجوم آخر على مدينة شرشال في شهر يوليو سنة 1531م لكنهم لم يستطيعوا مقاومة المدفعية الجزائرية مما أرغمهم على الانسحاب.

العلاقات العثمانية وأثارها على الجزائر :

¹ - محمد فريد بك المحامي - المصدر السابق - ص 231.

¹ - يحي بوعزيز ، المرجع السابق ، ص 17.

² - وليام سبنسر المصدر السابق ، ص 46.

بعد ما تمكن خير الدين بربروس من بسط نفوذه على الجزائر استدعاه السلطان العثماني سنة 1534م ليطلب منه فتح تونس وقدم له كل ما يحتاجه لذلك ولما كان في طريقه إليه عرّج خير الدين على فرنسا وقابل فرانسوا الأول وقدم له هدايا ثمينة وأعلن رسميا محالفته له ثم عاد إلى تونس واستولى عليها بعدما فرّ منها السلطان الحفصي مولاي حسن¹. الذي أستجد بالإمبراطور الإسباني "شارلكان" الذي قاد أسطولاً بحرياً كبيراً سنة 1535م استولى بواسطته على تونس وأعاد الحسن إلى منصبه وبالمقابل فرض عليه معاهدة تقضي بإنشاء حامية إسبانية محصنة بخلق الوادي والحصول على امتياز صيد المرجان بالإضافة إلى فتح الموانئ التونسية امام السفن الإسبانية قد أدت هذه المعاهدة إلى نقمة الشعب التونسي على مولاي حسن، أما خير الدين فقد عاد إلى عنابة وكان يقوم بمهاجمة السواحل الإسبانية حسب اتفاقية فرانسوا الأول حيث أسر خلالها 600 إسباني وتحصل على غنائم كبيرة²، وبعدها استدعاه السلطان سليمان القانوني إلى إصطنبول وعيّنه قائداً عاماً للأسطول البحري العثماني ومنحه لقب قابودان باشا. وتذكر المصادر التاريخية أنه منذ ذلك الوقت وقع اتفاق سمح لفرنسا بامتيازات في أملاك الدولة العثمانية بموجب المعاهدة الموقعة بين الطرفين في شهر فيفري سنة 1535م التي كادت تلغي بسبب معاهدة نيس الموقعة بين فرنسو الأول وشارل الخامس سنة 1538.³

- التي أنهت الخلافات التي كانت بينهما لكن هذا الوثام لم يدم طويلاً حيث ظهر خلاف جديد حول دققة ميلان.

- كما تمكن شارل الخامس من استمالة هنري الثامن ملك إنجلترا إلى جانبه.⁴ ولم يكن أمام فرنسا من يساعدها ويدعمها ضد عدوها إلا الدول العثمانية خصوصاً بعد الهزيمة التي

1 - أحمد السليمانى، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، دار الكتاب، الجزائر 1993، ص 10.

2 - عمار عمورة، المرجع السابق، ص 91.

3 - عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر " 1619 - 1614": رسالة لنيل شهادة الماجستير في

التاريخ الحديث، تحت إشراف الدكتور مولاي بالحاميسي

4 - عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار: التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا، دار النهضة العربية،

بيروت لبنان 1971، ص 97.

ألحقتها الجزائر بشارل الخامس ستة 1541م¹، لذلك سارع فرانسوا الأول إلى تهيئة السلطان العثماني راجيا منه تقديم المساعدات والعون في حربه التي سيخوضها ضد خصمه².

فقام السلطان سليمان القانوني بإرسال خير الدين بربروس على رأس أسطول كبير يتكون من مئة وعشر بارجة وأربعين غليوناً والذي غادر إسطنبول في 28 مايو 1543م قاصداً مرسيليا، وفي طريقه قام بغزو بعض المدن الساحلية الإيطالية ولما وصل استقبله الفرنسيون بكل ترحاب وأنضمت قواته إلى قواتهم وتعاونوا على حصار "نيس" والاستيلاء عليها عام 1543م، ثم أذن لخير الدين ومراكبه بتمضية فصل الشتاء في ميناء طولون الذي تنازل عنه الفرنسيون لهم، و أعطى له ثمانمائة ريال فرنساوي ليصرفها على جنوده.

وساهم جنود الأتراك في مياه البحر المتوسط في قلب موازين القوى البحرية ضد الإمبراطورية الإسبانية التي انهزمت جيوشها أمام القوات الفرنسية بفضل الدعم العثماني في معركة سريبول عام 1544م³، إلا أن عجز الخزينة الفرنسية على دفع أقساط هذا الدعم وأمام سخط الفرنسيين الذين تركوا منازلهم ومدينتهم للأتراك وسخط المسيحيين على استعانة فرنسا بالمسلمين⁴ قرّر فرانسوا الأول أنه من الأفضل له عقد سلام مع شارل الخامس الذي بدوره كان يريد هذا السلام مع فرنسا، فقد كانت مشاكل مع ألمانيا بسبب انتشار الحركة اللوثرية وكان أمراء شمال ألمانيا يتحدونه، فعقد سلام في كريسبي GRISPY عام 1544م يقضي بتنازل⁵.

1 - عائشة غطاس: المرجع السابق" ص 20 .

1_عائشة غطاس" المرجع السابق" ص 20.

2_محمد فريديك المحامي: المصدر السابق، ص 63.

3_جون وولف، المرجع السابق، ص 63.

4_عبد الحميد البطريق: المرجع السابق" ص 61.

التطور السياسي للجزائر في العهد العثماني 1518-1830م

أ- عهد الباي لاربايات 1518-1587م:

يبدأ بخير الدين بربروس الذي أسنده السلطان سليم الأول أمر حكم الجزائر مانحا إياه لقب الباي لارباي وينتهي بوفاة بلج علي عام 1587م، الباي لاربايات ثلاثة فقط "في الجزائر، الأناضول والروم إيلي". والباي لارباي هو قائد عسكري ومدني له سلطات مطلقة يعينه السلطان العثماني مباشرة.

"وكلمة باي لارباي تعني أمير الأمراء" وهو عادة يكون من كبار الضباط ولاسيما ضباط البحر. خير الدين مثلا كان أميراً بحرياً، علج علي أيضاً، وقد اشتهر عهدهما بخوف السلاطين منهما من حيث المزاحمة أو الاستقلال عن الخلافة نظرا لما قاما به هذان القائدان من أعمال جبارة وعليه فقد رأى السلاطين في هذا النظام خطرا عليهم.

وبداية من هذا العهد بدأت الجزائر تلعب دورا دوليا واهم ما ميّز هذه المرحلة على الصعيد العسكري تحرير صخرة البنيون عام 1529م من طرف الجيش الجزائري، كما تمكن في عام 1541م من التصدي لحملة شارلكان الذي جاء بجنرالات عظماء شاركوا في حرب المكسيك وإبادة الهنود الحمر، كما رافقه أبرع الضباط وأحدث الأسلحة في ذلك الوقت، وإذ بحربه على الجزائر تنقلب عليه أو على صاحبها أمام استماتة الجزائريين في الدفاع عن أرضهم. وشاعت الأخبار بهزيمة الإمبراطور وكانت كذلك حتى أنه نجى بأعجوبة من الأسر فعاد إلى بلاده عن طريق إيطاليا يجزّ ذبول الخيبة والهزيمة قائلا: "من أراد أن يفقد تاجه فليأتي إلى الجزائر".

وبعد هذا الانتصار الرائع على الإسبان غرس الأتراك أقدامهم بصفة دائمة ومستمرة بالجزائر شرقا وغربا، وكان ذلك أكبر حادث في ذلك الوقت، وكانت خاتمة هذا التفوق العسكري الذي ميّز هذه

المرحلة سقوط الدولة الزيانية عام 1552م "التي كانت دولة بحرية كبيرة تحكم من وجدة إلى بجاية في عز قوتها، عاصمتها تلمسان وقد عرفت عصرا ذهبيا وقد خلفها الأتراك من ناحية الشرق".

أما في الشرق الجزائري اكبر حادث هو تحرير بجاية في عهد الباي لرباي "صالح رايس" في عام 1555م. وقبل ذلك فقد حاول خير الدين بربروس تحرير تونس من الإسبان وعملائهم الحفصيين عام 1534م وقد تم له ذلك إلا أن الإمبراطور شارلكان أخذها منه عنوة سنة 1535م عن طريق حلق الوادي.

ولكن العثمانيين أعادوا الكرة مرة ثانية عليها وقاموا بتحريرها نهائيا من طرف "علج علي" وسنان باشا عام 1574م وبذلك يتم ضمها نهائيا إلى الخلافة العثمانية، تحكم عن طريق الجزائر. كما استطاع العثمانيون كذلك في هذه المرحلة فتح طرابلس عام 1550-1551م والقضاء على فرسان القديس يوحنا وضمها إلى الدولة العثمانية "تحكم عن طريق الجزائر".

النشاط البحري أو الجهاد البحري وليس الغزو البحري كما هو شائع في الكثير من الكتب.

لا نستعمل لفظة القرصنة لأنها تختلف في مضمونها ونظامها عن "الجهاد البحري" فهي "القرصنة" تعنى اللصوصية التي يبادر بها أي شخص ولكن لا دولة ولا راية تحميه، بينما المجاهد البحري فهو يخرج للجهاد في سبيل الله تعالى.

القرن 16م هو العصر الذهبي للجهاد البحري "النشاط البحري" حيث هيمنت البحرية الجزائرية على الحوض الغربي للمتوسط، كما عرفت بضربات القاسية للشواطئ الإسبانية والإيطالية لدافع ديني أي الانتقام لمسلمي الأندلس، وهنا يشير الكثير من المؤرخين إلى أن الشواطئ الإسبانية قد أفرغت من سكانها وساد الرعب في قلوب الإسبان، مثلا كلما نزلت بهم كارثة طبيعية يقولون أن سببها بربروس، وحتى الأمهات الإسبانيات كُنَّ يُخَفَّنَ أبنائهن بربروشا.

إذا فكرنا في الوجود العثماني ببلادنا من 1518م إلى 1830م نلاحظ أن الأتراك لم يحتلوا أكثر من 6/1 سدس البلاد الجزائرية "بجاية، مستغانم، الجزائر، المدينة، وهران، تلمسان...." ثم أن عددهم من بدايتهم إلى نهايتهم لم يتجاوز 15.000 ومع ذلك كانت لهم محاولات جبارة من خير الدين إلى علج على صاحب المشروعات الكبيرة والجبارة من التخطيط للرجوع إلى الأندلس، التخطيط لفتح قناة السويس، ولكن لأسباب مالية طارئة عجزوا عن تحقيق ذلك. كما أنهم انشغلوا كثيرا بمقاومة النصارى باسم الإسلام لأنهم جاؤوا كحماة للدين ولهذا وجدوا التأييد من طرف العلماء والسكان وعليه فالعلمية كانت تكتسي صبغة الجهاد في سبيل الله تعالى.

استراتيجيا الأسلوب الإسباني يختلف عن الأسلوب العثماني. غلطة الإسبان هي احتلالهم لمدن ساحلية لا معنى لها، ولم يتوغلوا في الداخل إذ سرعان ما حوصرت هذه المدن "كجاية، وهران، عنابة، البينون، طرابلس،..." فأصبحت إسبانيا غير قادرة على تموينها.

والظاهر كما أشار إلى ذلك بعض المؤرخين أن الحال وصل بهم إلى إحضار الماء من إسبانيا. بينما الأتراك لم يكتفوا بالجزائر فقط بل توغلوا داخليا إلى تنس، مستغانم، تلمسان، مليانة، بجاية، عنابة، المدينة،... كما أن المدن الإسبانية لم تلعب دورا فعالا في الغزو البحري.

عموما يمكننا أن نقول أن الجزائر في عهد الباي لاربايات بدأت تسيطر على البحر وأخذت وجهها كدولة عصرية وظهرت ككيان سياسي حديث بحدوده بعد أن توحدت واتخذت الجزائر كعاصمة لهذا الكيان، تكون بها جيش عظيم مهاب الجانب، كما يعتبر عهدهم عهد جهاد بحري وعهد طرد الإسبان من الجزائر. وتجدر الإشارة في هذا المضمار كذلك القول بأن هذه المرحلة تمثل أزهى عصور الحكم العثماني للجزائر من الناحيتين الاقتصادية والعمرائية، حيث لعب مهاجرو الأندلس دورا كبيرا في نقل كثير من المظاهر الحضارية التي عاشوها في الأندلس إلى الجزائر.

ب- عهد الباشاوات 1587-1659م:

الباشا هو أعلى لقب موجود في الدولة العثمانية، وهو تشريفي ورسمي لا يحمله إلا أصحاب الطبقة العالية جدا غيّرت الدولة العثمانية النظام السابق بعد أن لمست ضعف الارتباط بينها وبين ولايتها على الجزائر في أواخر عهد الباي لاربايات وأسباب أخرى منها أن شخصية "علاج علي" كادت تغطي حتى شخصية السلطان نظرا لطموحاته وتصرفاته المتحررة...

تعتبر هذه الفترة فترة مشاكل كبيرة للباب العالي منها، حروب الدول العثمانية في أوروبا والحروب البحرية في الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط بالإضافة إلى المشاكل في البلاد العربية، ولذلك عملت على المحافظة على قاعدة الجزائر لمجابهة الجهة الغربية.

يعين الباشا لمدة ثلاث سنوات وكان دالي أحمد أول من حمل اسم الباشا في الجزائر ونظرا لقصر المدّة التي كان يقضيها الباشا في ولايته، فقد انصرف إلى الاهتمام بمصالحه الشخصية وجمع الأموال دون أن يعبأ بمشاكل الشعب وأحواله. عموما كان الباشا يشتري منصبه بالأموال، وبذلك لا يفكر لا في الانقلاب ولا في الثورة. وقد وجد الحكام العثمانيون أن هذا النظام أنسب لهم، حيث قسموا شمال إفريقيا إلى ثلاث باشويات "الجزائر، تونس، طرابلس".

حكم الجزائر حوالي 30 باشا، كان منهم من هو أهل لمنصبه، كما كان من لم يكن أهلا لذلك المنصب، يختلفون من واحد لآخر، في مجملهم كان لهم نفوذ بارز، والظاهر أن هذه السلطة "الباشوية" كانت لصالحهم أكثر مما كانت لصالح البلاد.

تميّز عهد الباشوات بالتضعف والاضطرابات والفتور خلاف العهد الأول والسبب في ذلك يعود إلى مايلي:

- شخصية الباشوات الذين يعينون لمدة ثلاث سنوات يبحثون فيها على مصالحهم الشخصية فقط.
- البعد الجغرافي عن الباب العالي.
- الثورات الداخلية في عهدهم بالجزائر "شرقها وغربها".

- الثورة حتى بين الاقلية التركية مثل الكراغلة وهم جزائريون من جهة أمهاتهم وأتراكا من جهة آبائهم "ثورة الكراغلة على آبائهم عام 1632، 1633م وهي أهم ثورة كانت ضد الجيش الذي رفض لهم الدخول في الإدارة كما رفض لهم التمتع بأي امتياز من الامتيازات، وبذلك ظهر الصراع بين الأتراك والكراغلة الذين هضمت حقوقهم على حدّ قول بعض المؤرخين آنذاك. هذا وقبل قيام الثورتين السابقتي الذكر قامت ثورة لهم كذلك عام 1630م في العاصمة فجزوا فيها دار الذخيرة وقد ذهب ضحيتها 6 آلاف شخص. وفي عام 1647م تزعم الكراغلة رحيم البجاوي.

"جدد 27 باشا تقسيم: 50 سنة = معدل 22 شهرا أي أقل من ثلاث (03) سنوات". ويعود هذا التقصير إلى الاضطرابات واغتيال بعض الباشوات ولذلك كان لا بد من الخروج من عدم الاستقرار. ومن أشهر الباشوات نذكر أولهم دالي أحمد والباشا شعبان،...

أما أهم الأحداث التي رافقت هذه المرحلة فكانت الصراع الداخلي بين بني عباس والأتراك، وتعرض الجزائر لحملة صليبية إسبانية رابعة على عهد "الباشا سليمان" سنة 1601م. واشتداد التنافس بين فرنسا وبريطانيا وهولندا من أجل الحصول على امتيازات استثمار المرجان عبر السواحل الجزائرية وحق إقامة المحارس العسكرية لحماية سفنهم التجارية.

عموما يمكننا أن نقول بأن ضعف هذه المرحلة يعود إلى ضعف الباشوات لأن بعضهم كان لا يملك الكفاءة ولا القدرة على التسيير والحكم.

ج- عهد الآغوات 1659-1671م:

الآغا هو القائد الأعلى للجيش البري، وسبب الانتقال من الباشوات إلى الآغوات يعود إلى أن الجيش البري بدأ يتقوى شيئا فشيئا في عهد الباشوات وبدأ يتدخل في شؤون الدولة الأمر الذي أدى إلى ضعف سلطة الباشا أمام الآغا حتى شعر هذا الأخير بأنه أولى بالحكم من الباشا حيث أصبح الحكم الفعلي للآغوات بينما بقي الباشا صوريا أو شكليا فقط حتى أزيح نهائيا وجميع الموظفين في الدولة الجزائرية، التي تحملت يومئذ جميع نفقات الدولة وبذلك أحرزت الحكومة

الجزائرية الجديدة على شبه استقلال من الحكم الذاتي في دائرة السلطنة العثمانية ورعايتها، وبذلك عرفت الجزائر في عهد الآغوات الاستقلال عن الدولة العثمانية.

وقد اعترف الملك الفرنسي لويس 14 بالدولة الجزائرية بعدما كان لا يعترف بها قبل ذلك حيث عقدت فرنسا مع الجزائر معاهدة عام 1619م بدون تدخل الدولة العثمانية. بعدما كانت تقول فرنسا بأن حكم الآغوات هو تمرد ضد الدولة العثمانية. "وهي التي كانت تتحالف مع جهة ضد جهة أخرى وفقا لمصالحها".

ويعتبر الآغا مولعا بالدماء وكان زعيما. وقد قام الآغا شعبان بعدة أعمال منها تحرير جيجل من الوجود الفرنسي عام 1664م في عهد لويس 14. حيث استولى على عدد كبير من المدفعية الفرنسية وكان لذلك أصداء كبيرة وعنيفة في العالم الأوربي الأمر الذي أدى بالملك لويس 14 - إلى المفاوضات مع الجزائر وحكومتها- وقد عقدت أول معاهدة عام 1666م لإطلاق سراح الأسرى الفرنسيين الذين ألقى عليهم القبض عام 1664م.

يمثل هذا العهد غياب السيادة العثمانية الفعلية، بحيث أصبح الديوان الذي يتألف من كبار ضباط الإنكشارية هو الذي يقوم بانتخاب "الآغا" المنتدب للحكم، بعدما كان الحاكم يعين من قبل السلطان العثماني خلال مرحلتي "الباي لربايات والباشوات". وأبرز ما نجم عن هذا الأسلوب الجديد في نظام الإيالة، تنافس الضباط فيما بينهم للوصول إلى الحكم، وقيام تكتلات عسكرية داخل الفرق الإنكشارية.

مدة حكم الآغا كانت لمدة سنة واحدة فقط، وكان منهم من لم يحكم ولا يوما واحدا.

وقد رفعت حكومة الجزائر يومئذ تقريرا بنظامها الجديد هذا إلى الباب العالي طالبة منه المصادقة عليه فأمضاه السلطان مشترطا في ذلك على الديوان تحمل نفقات الجند وبذل المرتبات للضباط والجند ومما يجب الإشارة إليه في هذا المضمار أن أحدهم حاول الاستيلاء على المنحة التي كان السلطان يبعثها كل عام لإعانة الأسطول الجزائري فكانت النتيجة ان قرّر الديوان المنعقد سنة

1659م وكانت السلطة فيه للإنكشارية أن يسحب من الباشا آخر ما بقي لديه من مظاهر السلطان وهو القيام على الأموال والاحتفاظ بالخزينة ليتولاها يومئذ الآغا يعاونه الديوان وبهذا أصبحت السلطة الفعلية بيد الآغوات.

يشير الكثير من المؤرخين أن هذه المرحلة تعتبر أسود مرحلة أو صفحة للحكم العثماني في الجزائر نظرا للاضطرابات وعدم الاستقرار وانتشار الفوضى وقد مات جميع الآغوات موتاً أحمرًا تقريباً وهم البكباشي خليل آغا 1660م بويوك رمضان آغا 1661م، شعبان آغا 1661م، إسماعيل آغا 1662م، موسى آغا 1664م، الحاج علي آغا 1665م.

وخلاصة ما انتهت إليه هذه المرحلة الصراع الذي قام بين قادة القوى البحرية "الرياس" مع الآغوات "قادة القوى البرية الإنكشارية" ووقوف السلطان والشعب الجزائري إلى جانب رياس البحر، ويعلل ذلك المؤرخون باستياء السلطان العثماني من قطع الآغوات لكل صلة باسطنبول وتدمير الشعب من تقشي الفوضى والفساد إبان حكم الآغوات.

د- عهد الدايات 1671-1830م:

الداي في اللغة العثمانية تعني الخال إلا أن الكلمة تطورت حتى أصبح ضابطاً في الجيش وبعد ذلك أصبح الداوي هو الحاكم الأعلى في الجزائر.

كان الداوي ينتخب من بين أعضاء الديوان لمدى الحياة، وبعدها تؤخذ موافقة السلطان على تسميته دايا. ولذلك نجد بعض الكتب التاريخية التي تتحدث عن هذه المرحلة وتشير إلى طبيعة الحكم في الجزائر بجمهورية الجزائر نظرا لانتخاب داياها فقط.

وكان من شروط الترشح لمنصب الداوي أن يكون المرشح تركيا أعزباً حتى يسير شؤون البلاد على أحسن وجه، وكان باستطاعة كل عسكري تركي أن يرشح نفسه وكذلك كان بإمكان كل الوزراء أن يرشحوا أنفسهم، ولذلك نلاحظ أن الدايات كان أغلبهم وزراء "خزنجي" أو آغوات وكان الدايات ينتخبون من طرف العساكر أو الجنود الأتراك الأعضاء في الديوان كما سبق الإشارة إلى ذلك.

أما الكراغلة والأهالي لم يكن يسمح لهم بالتصويت. يصبح الداوي بعد انتخابه صاحب السلطة المطلقة.

وصل هذا العهد الرابع من الحكم العثماني للجزائر عام 1671م نظرا لما كانت تملكه طائفة الرياس من قوة حيث اغتنمت فرصة الوضع السيئ الذي عاشته البلاد في عهد الآغوات فوضعت حدًا لهذا العهد واستبدلته بنظام يشرف عليه الداوي وبجانبه الباشا طيلة الفترة الممتدة ما بين 1671-1711م ولكن من سنة 1711م وإلى غاية 1830م أخذ الداوي وظيفة الباشا كذلك فأصبح دايا وباشا في نفس الوقت.

فالداوي هو الذي يرتأى إعلان الحرب، ويتولى عقد الاتفاقيات الدولية، واستقبال البعثات الدبلوماسية. غير أن هذا الوضع لم يكن يعنى انقطاع كل تعاون أو تعاطف، مع الدولة العثمانية، ففي حالة الحرب كانت الجيوش الجزائرية تشترك مع الجيوش العثمانية في عمالياتها الحربية. وقد إتضح ذلك من خلال اشتراك الأسطول الجزائري مع الأسطول العثماني في معركة نفارين جنوب اليونان عام 1827م.

عدد دايات هذه المرحلة كثيرون أولهم محمد التريكي "1671-1681م" وآخرهم حسين داي "1818-1830م".

بعض الدايات حكموا لمدة طويلة مثل الداوي محمد عثمان باشا الذي حكم ربع قرن تحدى فيه الكثير من الزوابع الكبيرة والتحديات الكبرى في الداخل والخارج وبعضهم الآخر حكم يوما واحدا. مدة الحكم تختلف من داي لآخر. والظاهر تاريخيا أن أغلب الدايات قتلوا. لماذا؟ لسبب واحد، لأنه ينتخب مدى الحياة.

الداوي بما أنه مرشح للموت في كل وقت لذا كثرت في عهدهم الاغتيالات والدماء ولم ينجوا منها لا الصهر ولا الأخ وهذا في مجملهم وليس في كلهم. فالداوي شعبان وهو أعظم العظماء عاصر ملوكا كثيرين كالملك مولاي إسماعيل في المغرب الأقصى والملك الفرنسي لويس 14 وملك

بريطانيا فتحدى الجميع وانتصر على معظمهم كمولاي إسماعيل ولويس 14 إلا انه مات مقتولا من طرف المتعطشين للسلطة بعد إصداره لمرسوم ينص على معاملة الكراغلة كبقية العناصر التركية نتيجة الخطر الآتي من الشرق "تونس" ومن الغرب "المغرب". قوة الكراغلة كانت عبارة عن قوة ردع للانكشارية، ولكن بعد وفاة الداوي شعبان ألغت الإنكشارية هذا المرسوم. ومن خصال هذا الداوي كذلك أن الدبلوماسية الجزائرية في عهده كانت نشيطة من ذلك أنه بعث رسوله محمد الأمين إلى فرنسا من أجل إطلاق سراح الأسرى الجزائريين في مدينتي طولون ومارسيليا وقد وفق في ذلك.

"وعلى العموم يمكن القول أن الدايات كانوا من رياس البحر، وكانوا يبدلون بسرعة وبعد عام 1671م حكم 27 دايا إثنان منهم فقط نجوا من القتل واحد عزل والثاني تنازل والبقية قتلوا".

وأهم ما يستحق الوقوف عنده كذلك من أحداث هذا العصر، هو تمكن الجيش الجزائري خلال عصر الدايات من تصفية الوجود الإسباني نهائيا في كل من وهران والمرسى الكبير وذلك في عام 1792م وبعد عدّة مصادمات عسكرية ابتدأت منذ عام 1708م كما تمثل هذه المرحلة مرحلة احتكار طائفة الرياس "القوى البحرية" للسلطة وفيها كذلك استكملت الإدارة العثمانية صورتها الثابتة في الجزائر ودخول الأسطول الجزائري عصره الذهبي.

النظام الإداري في الجزائر إبان العهد العثماني 1518م-1830م

1- التقسيمات الإدارية:

قسمت الجزائر في العهد العثماني إلى أربع مقاطعات رئيسية هي:

- أ- دار السلطان: تمتد من دلس إلى تنس وهي على شكل مثلث يحدها من الشرق والجنوب الشرقي بايلك التيطري أما من الجنوب الغربي والشرق يحدها بايلك الغرب. عموماً نقول أنها كانت تشمل العاصمة وضواحيها، وهي مقرّ الحاكم الأعلى والديوان في كافة المراحل.
- ب- بايليك (ولاية) الشرق: وهي أكبر المقاطعات الجزائرية وعاصمتها الإدارية قسنطينة.
- ج- بايليك التيطري: ومركزها مدينة المدية.
- د- بايليك الغرب: وكانت عاصمته الإدارية في البداية مدينة "مازونة" ومن ثم تحولت إلى "معسكر" واستقرت أخيراً في وهران بعد طرد الإسبان منها نهائياً عام 1791م.

2- الأجهزة والتنظيمات الإدارية العثمانية في الجزائر:

اتخذ الجهاز الإداري منذ عصر الدايات صفة الثبات فتحدّدت هيأته على الشكل التالي:

- الحكومة المركزية وعلى رأسها الداوي: نجد السلطة المراقبة تعرف بالديوان "البرلمان حالياً" يتشكل من مجموعة من الضباط مهمته: يراقب، يوافق، يعارض،... تصرفات الدايات والحكومة المركزية، ولكن شيئاً فشيئاً تصرف الدايات حتى جعلوا أعضاء الديوان العوبة في يدي الداوي فتحول بعد ذلك الديوان من مؤسسة مراقبة إلى العوبة في يدي الداوي.
- أ- الداوي: وهو رئيس السلطة التنفيذية "الحاكم الأعلى" والقائد العام للجيش، يوقع المعاهدات، ويستقبل السفراء ويوجه السياسة الخارجية، وكانت الجزائر المقرّ الرئيسي له. قليل من الدايات من كان في المستوى وكثير منهم من كان دون ذلك حيث نلاحظ أن بعضاً منهم انتقل من مرتبة حقيرة إلى منصب "الداوي" واحدهم كان غسالاً للموتى فانتخب دايا وبعضهم الآخر كان طباحاً للداوي أو عسكرياً بسيطاً فأصبح دايا، أغلبهم كانوا متعطشين لدماء وأموال الناس، وهناك من المؤرخين من يؤيد ذلك.
- ب- المجلس الاستشاري الخاص: وهو بمثابة مجلس الوزراء في عصرنا الحالي حيث يرجع الداوي إليه قبل البث في قراراته ويتكون هذا المجلس من:

- **الوزراء:** على رأسهم الخزنجي "كلمة عربية وتركبية في نفس الوقت" وهو وزير الخزانة ويعود إليه الإشراف على الموارد والعقود.

وهو من يتصرف في الخزينة وهو الوزير الأول والمشرف على أموال الدولة "المدخولات والنفقات" كان له نفوذ كبير أقوى من غيره لأنه هو الذي يتقدم في الانتخابات "أو هو الذي يقدم الداي".

ج- **الآغا:** وهو القائد الأعلى للجيش البرية من مشاة وخيالة. ونظرا لنفوذه وقوته فهو ملك البادية، يتصرف في القبائل والرعية والمدن كما يشاء "لأن نظامهم قائم على خيارات البلاد".

د- **خوجة الخيل:** وهو وزير الضرائب المدفوعة نقدا أو عينا ومن بين الضرائب التي كانت تدفعها القبائل للعثمانيين الخيل لاستعمالها في الحروب وبيعها للخارج لأن الخيول الجزائرية كانت مشهورة وتعرف بخيول بارب Cheveaux Barbes منها العربية الأصيلة والبربرية. لأن أوروبا كانت في حاجة ماسة لها وللمح الجزائر خوجة الخيل هو الذي كان يتصرف في هذه الخيرات.

هـ- **البيت مالجي:** أهميته أقل من الخزنجي وهو المشرف على بيت المال، كان دائما بالمرصاد لأصحاب الأموال مثلا يقوم بتأميم أموال البايات المعزولين، يقوم مثلا أموال الرجل الذي مات ولم يخلف "أولادا أو ترك بنتا واحدة لأخذ أمواله.

و- **وكيل الحرج:** وهو وزير البحرية له كلمته في الدولة والحكومة وهو المستشار الخاص للداي. وكثير من الدايات كانوا وكيل الحرج.

الخلاصة أن الأموال التي كانت هي الركيزة للدولة والوسيلة للوصول إلى الحكومة أو الوسيلة لتحطيم من في الحكومة. هذه الأموال كان بعضها للدولة مقدسة ملك لها وبعضها ملك للأشخاص. كيف كانت تصرف هذه الأموال؟

عادة جزء كبير منها يستغل لدفع أجور الموظفين والجنود. كما أن جزءا منها كانت ترسل لاسطنبول وهذا بالنسبة للبايات والولاة الذين كانوا موجودين في الجزائر.

3- الجهاز الإداري المحلي:

أ- **الباي**: على رأس الجهاز الإداري المحلي الباي ويختار عادة من الأتراك العثمانيين يختاره الداى وفي بعض الأحيان يختار من فئة الكراغلة. والباي له صلاحيات مطلقة في إدارة البايليك يساعده في ذلك جماعة من الموظفين المحليين، وهؤلاء يكونون "ديوان الباى" ومن بين الأشخاص البارزين للباي والمساعدين له نذكر الخليفة والآغا فضلا عن خليفتين آخرين الأول منهما على اتصال دائم بالأهالي "الرعية" وله الحق في جباية الضرائب. أما الثاني فهو ينوب عن الباى في حالة غيابه أو مرضه وعرف هذا الخليفة باسم خليفة الكرسي.

ب- **الآغا**: وهو من مساعدي الباى، ويختار غالبا من العنصر المحلي أي عكس البايات. وكان الآغا يقوم بدور الوساطة بين الباى والأهالي وقد حظي أصحاب هذا المنصب بعدة امتيازات مادية مما جعل منصب الآغا في أغلب الأحيان محل منافسة شديدة.

ج- **القائد**: غالبا ما يختار من طرف الآغا ويتم تعيينه من طرف الباى وهو همزة وصل بين القبيلة التي ينصب عليها وبين الموظفين الكبار بالبايليك. ونظرا لأهمية منصب القائد فإن اختياره يتم عادة من بين الأتراك وأحيانا أخرى من بين الكراغلة. ويعود هذا الاحتكار إلى محاولة الأتراك تقادي الصراعات القبلية بشأن هذا المنصب. وتمتد سلطة القائد على مجموعة من القبائل وهذه الأخيرة تشكل ما عرف بالوطن "Outhan".

وفي بعض الأحيان يختار القائد من القبيلة نفسها مثل بعض القبائل الهامة والبارزة وكانت هذه السياسة إحدى الوسائل الناجعة لضمان تبعية أفراد القبيلة إذ أن القبيلة لا تشعر بضغط أجنبي عليها مادام شيخ القبيلة نفسه هو القائد. أما الجهات التي لم تصلها السلطة المركزية والتي حافظت على استقلالها فقد كان لشييوخها حق التصرف المطلق في شؤونها وليس عليهم إزاء الحكم تقديم ضريبة كلما اقتضت الضرورة.

د- **شيخ القبيلة**: هو الشخصية الثانية بعد القائد يتم تعيينه من طرف القائد بعد استشارة رؤوساء الدواوير. وحرصا على الأمن وضمانا لطاعة أفراد هذه القبيلة فإن شيخ القبيلة يختار من القبيلة ذاتها، وغالبا ما يكون من بين العائلات الكبيرة. وتكمن أهميته في أنه كان يمثل الوساطة بين أفراد القبيلة الخاضعين لنظام الحاكم وبين السلطة، ولهذا كان يتحتم عليه لأداء مهامه أن يكون محل ثقة من الطرفين "الحكومة والقبيلة" ومن مهامه:

- جباية الضرائب وفرض الأمن، وإعداد الفرق العسكرية كلما اقتضى الأمر ذلك.

4- خصائص النظام الإداري العثماني بالجزائر:

أ- هو الإبقاء على التنظيمات الإدارية الموجودة أو الموروثة "النظام المحلي كشيخ القبيلة".
ب- تبني النظام المشرقي "التنظيمات المشرقية العثمانية"، في مجال الجهاز الحكومي المركزي وفضلا على هذا نجد أن الجيش كان عثمانيا أيضا. وفضلا عن ذلك اعتمد العثمانيون على قبائل المخزن، وهي قبائل كان لها دور أساسي في فرض الأمن وطاعة هذه المناطق مع الملاحظة أن القبائل قسمت إلى قسمين: 1- قبائل الرعية، 2- قبائل المخزن.
1- قبائل الرعية: هي القبائل الخاضعة للسلطة الفعلية مباشرة وهي التي يسلط عليها مختلف أنواع الضرائب.

2- قبائل المخزن: وهي عكس النوع الأول، أي أنها القبائل المحظوظة تمتعت هذه القبائل بامتيازات عديدة مقابل التزامات وخدمات تؤديها للنظام الحاكم. والوظائف الأساسية لهذه القبائل كانت تتمثل في ضمان الأمن في البلاد وضمان طاعة السكان وهذا من بقاء تمركزها إذ غالبا ما كانت تتواجد قرب الأسواق الجهوية وفي الطرق الرئيسية والثانوية أيضا.

ففي الطريق الرابط بين الجزائر ووهران نجد قبائل المخزن مرابطة بنقاط حساسة إذ تتمركز قبيلة "بوحلوان" وهي مخزنية بالقرب من مليانة.

وقرب سدّ شلف تتمركز قبيلة "أولاد صحراوي" وتواجدها الحساس هذا يظهر من قيمة بايلك الغرب حيث تتواجد في المناطق المهتدة بالهجمات الإسبانية، وفي المناطق المهتدة بغارات المغاربة أي أن هاته القبائل استعملت أساسا لردع ومقاومة الخطر الأجنبي من ناحية ولمقاومة أي تمرد داخلي أيضا، مع الملاحظ أنه ابتداءً من القرن 18م إزدادت الحاجة إلى قبائل المخزن نظرا لازدياد الثورات الشرقية والغربية.

لقد كانت هذه القبائل موزعة في كامل أنحاء البلاد بطريقة محكمة استهدفت السيطرة الكلية على البلاد ومما لاشك فيه أن قبائل المخزن قد لعبت دور الشرطة بكل يقضة، وأنها كانت أنجع الأساليب في تدعيم الحاكم التركي العثماني بالمنطقة، ولهذا اعتبر العديد من مؤرخي هذه الفترة أن قوة الوجود العثماني بالجزائر كانت في هذه المؤسسة "المخزن" وأن اعتماد العثمانيين على هذه

المؤسسة يعود إلى انعدام الدعم المادي من الباب العالي أي قلة الدعم العسكري خاصة في العهود الأخيرة كما تشير إلى ذلك الكثير من المصادر التاريخية.

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المضمار أن عدد الأتراك بالجزائر لم يتجاوز 30 ألف في القرن 17م وهذا لا يسمح للحكام السيطرة على كامل أنحاء البلاد دون اللجوء إلى هذه الطريقة. وما يمكن ملاحظته أن الحكم العثماني كان نظاما أو حكما غير مباشر وذلك لكي يأمنوا شرّ تلك القبائل.

5- آثار الحكم العثماني بالجزائر:

خلق إنصواء الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية آثارا بعيدة تعمقت ملامحها في الوجوه السياسية والاقتصادية والاجتماعية للبلاد من خلال النتائج التالية:

أ- ظهور كيان سياسي جزائري موحد في العصر الحديث عاصمته الجزائر لأول مرة في التاريخ، يتمتع بمكانة ومهابة دوليتين.

ب- صدّ الخطر الإسباني وتحرير المدن التي استطاع الإسبان استعمارها.

ج- قيام تمازج بشري بين سكان البلاد الأصليين والوافدين الأتراك والأندلسيين أدى على مرّ الأزمنة إلى إحداث تأثيرات متبادلة من حيث العادات والتقاليد الوطنية إن صح التعبير.

النظام العسكري العثماني بالجزائر "1518-1830م"

ترى كيف تمكنت جماعة تقدر بـ15 ألف من الأتراك حكم البلاد في القرن 16؟

النظام العسكري العثماني في الدولة العثمانية:

كان في البداية صورة من النظام العثماني في اسطنبول. والظاهر تاريخيا أن الجيش العثماني في القرن 16م كان يسمى بالدين الإسلامي المتنقل لأن هذا الجيش كانت له صبغة دينية والغاية تتمثل في الدفاع عن الإسلام أكثر من المصالح المادية. وهو في المشرق اكبر نظام وأشهر ما عرفته الدولة العثمانية لأن سمعتها بنيت عليه، كما بنى السلاطين مجدهم عليه لما حققه لهم من فتوحات وغزوات إسلامية. ولكن عندما أحس هذا الجيش بقوته كوّن طبقة نتيجة تلاحم أفرادهم وطاعتهم المثالية في بداية الأمر وبعد ذلك أصبح يستغل هذه القوة ويتدخل في شؤون الدولة حتى أصبح هو السيد الفعلي فيها ووصل هذا التدخل والغطرسة إلى القمة عام 1816م حيث أصبحت الحالة لا تطاق في المشرق الأمر الذي أدى بالسلطان العثماني محمود إلى ذبح الكثير منهم حتى تتخلص الدولة من شرهم.

الجيش في العهد العثماني يسمى بالإنكشارية ومعناها بالعثمانية "يني تشيري" الجندي الحديث كما يسمى كذلك باليولداش ومعناها رفيق الطريق.

عناصره تتكون من أناس ربوا صغارا بعد أخذهم كضريبة دم من الشعوب البلقانية أو اختطفوهم في حروبهم بالبلقان ثم قام الأتراك بتربيتهم في ثكنات حيث ربوا تربية إسلامية خالصة ينظرون إلى الإسلام كدين والجيش كأسرة والجهاد كعقيدة في الحياة.

هذا ما كان يعرفه هذا الجيش الذي أربأ أوربا. يتكون من عناصر مختلفة منهم البلغار واليونانيين والألبان والصرب والكرواتيين... الخ، حيث تربى فيهم التلاحم والتضامن والغيرة على الإسلام والمسلمين.

أما النظام العسكري في الجزائر العثمانية:

الإنكشارية في الجزائر عددهم قليل بين 10 و 12 ألف حسب الظروف وقد يصل إلى 15 ألف كما تشير إلى ذلك بعض المصادر.

كان هذا الجيش يتركز في العاصمة وبعضه الآخر كان موزعا على المدن الأخرى "عناصر تركية من الأناضول أرسلتهم الدولة العثمانية باعتبارهم الركيزة التي تعتمد عليها الدولة".

الجزائر كانت في حقيقة أمرها جمهورية عسكرية أو جمهورية عسكر من 1518م إلى 1830م كما تشير إلى ذلك بعض المصادر.

مهمة هذا الجيش فيها "الجزائر" كانت تتمثل فيما يلي:

- جيش بري يتصدى للحروب الخارجية والداخلية وهو في نفس الوقت حرس حكومي "جيش وشرطة" يسهر على النظام الداخلي.

- في البداية عرف هذا الجيش بالجزائر بالأوجاق "المعنى الأول لهذه الكلمة الموقد ثم تطور المعنى إلى فئة من العساكر، المعنى الثاني هو الجيش والمعنى الثالث هو الحكومة".

- عندما يأتي الجندي الجديد ليدخل إلى الخدمة العسكرية يخضع إلى نظام غريب، حيث يخدم عاما ويستريح عاما آخر ثم يعود إلى الجيش عاما آخر ثم يعود إلى الحالة المدنية مرة أخرى أي سنة بسنة حتى يموت أو يتخلى عنها "بالتناوب". هذا وتتمثل خدمتهم أثناء السنة العسكرية في ثلاث مراحل وهي:

أ- فترة التدريب على السلاح والحراسة.

ب- فترة أو مرحلة النوبة: معناها أن الجيش الموجود في الجزائر يذهب إلى مدن جزائرية أخرى "إستراتيجية" ليرابط فيها.

ج- المحلة: وهو الجيش الذي يخرج مرتين في السنة نحو الجهات النائية والصعبة لجمع الضرائب تحت حكم الآغا.

وكان لهذا الجيش ديوان يسهر على مصالحه، بينما كانت الترقية تتم بالأقدمية كل ثلاث سنوات يترقى اليولداش حتى يصبح آغا إذا استطاع ذلك.

بعد ثلاث سنوات الأولى يصبح **أوداباشي** "ما يعرف عندنا بالعريف أو الكابورال" وتعنى كلمة أوداباشي بالعربية "**حاكم البيت**" وبعد سنوات يصبح **بلوك باشي** "**ضابط متوسط**" ويحكم في الداخل أولاً ثم يعين بعد أقدميته **يحي باشي** وهو الضابط الذي دخل في **صف الاحتياط**.

الكاهية: وهي الرتبة الرابعة دون الآغا أي قبل الآغا.

مراتب هذا الجيش:

كانت عندهم طريقة غريبة في ذلك كل الجنود من أبسطهم إلى أعلاهم يأخذون نفس المرتب دون تفرقة في الأقدمية وإنما بعض الامتيازات تختلف وتتبع الدرجات والرتب العسكرية. وهناك مناسبات يضاعف فيها المرتب ونذكر على سبيل المثال لذلك تبديل الداى أو الباشا حيث الذي يتولى السلطة يقوم بالزيادة في الأجور، وهذا ما أدى إلى انتظار تبديل الباشا أو الداى فقط.

والظاهر تاريخياً أن المرتب جعل هؤلاء الناس لا يشبعون يطلبون الزيادات دائماً وإن لم تكن يحدثون الاضطرابات والتمردات والمؤامرات والثورات.

حياة هذا الجيش كانت إما في العاصمة وإما خارجها: في العاصمة كانوا يسكنون الفشلة "الثكنة باللغة العربية". وكانت الجزائر العاصمة تحتوي آنذاك على (07) سبعة مراكز عسكرية.

المتزوجون منهم كانوا يسكنون في المدينة. والظاهر أن أصحاب العاصمة كانوا يسعون لمصاهرتهم بحثاً عن الجاه والسمعة وكذلك لثروتهم أو الخوف منهم.

ومما يلاحظ عن هذا الجيش في العهد العثماني الأخير أنه أصبح يخرج عن الطاعة ويتدخل في شؤون الدولة ويعتدي على أموال الناس ويحدث الفتن والقتال والاضطرابات باستمرار، حيث

اعتبر نفسه فوق القانون وبذلك أصبح أفراده أهل فساد والطريقة الوحيدة لإرضائهم تقديم الأموال والهدايا في المناسبات "لتجنب تمردهم".

ومما يجب الإشارة إليه في هذا المضمار ما أشار إليه ويليام شالر في مذكراته وهو القنصل الأمريكي بالجزائر ما بين 1816م و1824م أنه إذا حوكم أحد لجريمة اقترفها هو وأصحابه فإن محاكمتهم تتم في محاكم سرية وخاصة بهم وكذلك السجن، حتى حكم الإعدام لا يسمع به أحد لأنه خاص بهم فقط.

وعندما دب الصراع بين الإنكشارية ورجال البحرية "الرياس" في عهد الدايات استطاع الرياس استعادة النفوذ والسلطة وأصبحت محتكرة من طرف الرياس أو الطائفة.

الرياس أو الطائفة:

هم رياس البحر نجد على رأسهم القبطان رئيس وهو القائد العام للقوى البحرية. كونوا ما يسمى اليوم بالنبابة التي كانت الأغنى بالجزائر آنذاك. كانت سمعتهم طيبة لدى السكان عكس الجيش البري الذي كان ممقوتاً من طرفهم لأنه كان يعيش عالة عليهم الأمر الذي أدى فيما بعد إلى تغيير نظام الحكم من الآغوات إلى الدايات الذين كانوا من رياس البحر كما سبق الإشارة إلى ذلك.

ومما يجب الإشارة إليه والتركيز عليه أن المنافسة التي كانت قائمة بين رجال البحر والبر أدت إلى تعكير الجو في الجزائر. ففي القرن 18م نلاحظ تطوراً في حياة الإنكشارية حيث إبتعدوا عن الجهاد والدفاع عن الإسلام والمسلمين، فترى فيهم الجشع والعطش للأموال ونهب أرزاق الناس وحب المغامرات كتقليد لزملائهم في إسطنبول الأمر الذي أدى بالسلطان محمود الثاني عام 1816م إلى نبح الكثير منهم.

عموماً لقد تحوّل الإنكشاريون من الانضباط المثالي والسلوك الملتزم وفداء أرض الإسلام والمسلمين إلى التهور والسلوك السيئ وحب الإرتزاق والنهب حتى أصبحوا أقرب إلى اللصوصية

منهم إلى الجندية ناهيك عن افتقادهم لروح الجهاد والتضحية ويتجلى ذلك في الغارة الفرنسية على الجزائر عام 1830م حيث نجدهم لم يكونوا في المستوى المطلوب للدفاع عن الوطن الجزائري مما جعل فرنسا تفرض سيطرتها على الجزائر.

لماذا لم يستجد الداى بالعناصر المحلية؟

فكر الكثير من الدايات في هذا الحلّ وهو تبديل الجيش الإنكشاري بالعناصر المحلية، ولكنهم وجدوا الأبواب مغلقة. وكانت هذه الفكرة عند خير الدين بربروس في القرن 16م. (*) ولكنهم خشوا من ذلك لأن خطر الجيش المحلي أكثر من خطر الجيش الإنكشاري.

كما نلاحظ يقظة المليشيا الإنكشارية التي لم تسمح بتأسيس جيش منافس لها والذي يبدأ بها لو تحقق.

ففي المرحلة الأخيرة عندما كثرت الاضطرابات والفتن في هذا الجيش قام الداى **علي خوجة** "1817-1818م" بالانتقال من قصر الداى إلى القصبه سرّاً ناقلا معه خزينة الدولة خشية أو خوفا عليها من الإنكشارية ثم قام بإنشاء **حرس محلي** يتكون من **2000 رجل** إلا أن الإنكشارية ثارت عليه يوم **29 نوفمبر 1817م** فتصدى لهم وقام بذبح الكثير منهم مقلدا في ذلك سلطان الدولة العثمانية. وهذا ما جعل الكثير من الإنكشاريين يفرّون إلى تونس، ومن هنا بدأت الحكومة الجزائرية تستخدم العناصر المحليّة للضرورة فقط وهذه العناصر تتكون ممايلي:

- الصبايحي: وهي فرقة جيش مكونة من العناصر المحلية.

(*)- حسن بن خير الدين كان من أم جزائرية تولى منصب الباى لارباي ثلاث مرات بعد ذلك وقع صدام بين الكراغلة والأهالي عام 1596م نتيجة استتجاد الباشا بالكراغلة ضد البولداش. قام خيضر باشا بجمع الكراغلة حوله وقع الإنكشارية وهنا وقع الطلاق بين الكراغلة والإنكشارية وأبعدوهم عن السلطة.

وعند وقع تحالف بين الأهالي والكراغلة منحهم الداى شعبان مناصب أي للكراغلة كيباليك. أما في عهد الداى محمد فقد أصدر مرسوما يحرم انضمام الكراغلة للجيش أي تحريمهم من التجنيد بينما في عهد علي خوجة 1817م فقد سمح لهم بالانخراط في الجيش الجزائري وقد حدا حذوه الداى حسين فترة حكمه 1818-1830م.

- القوم او القومية: وهم الخيالة تقدم من طرف القبائل عندما تحتاجها الدولة. وقد استمر الأمر على هذا الحال إلى عام 1820م حيث شهد الجيش أزمة خطيرة تتمثل في قلة الجنود وصعوبات التجنيد والهروب من الجيش "تشير المصادر التاريخية أن عددهم قلّ من 15 ألف إلى 5 آلاف جندي"، زد على ذلك الاضطرابات التي عرفتھا الخلافة العثمانية، كما ان التأزم زاد خاصة بعد الحصار الفرنسي على الجزائر.

هذا وفي الأخير قد استتجدت الدولة بطبقة الكراغلة واستخدمتهم في آخر الأمر إلا أنهم عجزوا عن النهوض بالحكم العثماني لأن الأوان قد فات.

وخلاصة القول أن الجيش الإنكشاري هو الركيزة التي بنيت عليها الدولة طيلة أكثر من ثلاثة قرون. وقد عانى الجيش الكثير عندما فتح الباب لغير المؤهلين للخدمة العسكرية. وبذلك تحول من آلة الدفاع عن الوطن والجهد وفداء للحمى إلى وسيلة للحكم أو مسير للحكم وراء الكواليس مما جعل البلاد تعاني الويلات وأخيرا هو الذي قضى على النظام بالاغتيالات وساهم في سقوط الجزائر من حيث لا يدري.

العلاقات الدولية للجزائر في العهد العثماني "1518-1830م"

طبيعة العلاقات بين الجزائر والدول العثمانية:

كان دخول العثمانيين إلى الجزائر استجابة لاستتجاد سكانها بهم كما سبق الإشارة لذلك في المحاضرات الأولى بالتفصيل، على عكس بقية الأقطار العربية التي ارتبط الوجود العثماني فيها بصراع مسلح مع سلطاتها الحاكمة آنذاك كالصفويين في العراق والمماليك في مصر وبلاد الشام والحجاز وهذا ما جعل أبناء هذه البلاد ينظرون إليهم كغزاة وكاستعمار واحتلال وأبناء هذه المدرسة والاتجاه هو لسان حال دول المشرق في الوقت الحاضر مع العلم أن هناك مدرسة واتجاه آخر يرى عكس ذلك تماما.

وبينما كان الحكم العثماني لهذه الأقطار مباشرا، فإنه كان في الجزائر دون غيرها حكما غير مباشر. تحدّد فيه نفوذ الدولة العثمانية بالموافقة على تعيين الوالي بعد انتخابه من طرف الديوان العسكري بالجزائر. وبالحصول على العائدات المالية المفروضة على الخزينة الجزائرية. وبتقديم الدولة العثمانية على غيرها من الدول الأخرى انطلاقا من إقرار الحكومة الجزائرية بولائها للخليفة العثماني، وقد تجلّت حرية التصرف التي كانت تتمتع بها الحكومة الجزائرية بالصلاحيات التالية الممنوحة لها.

أ- استقلال الخزينة الجزائرية منذ عهد خير الدين بربروس، والسماح لحكومة الجزائر بضرب النقود باسمها، واتخاذ الأختام الخاصة بها.

ب- انفراد الحكومة الجزائرية بحق عقد المعاهدات، والاتفاقيات الدولية على اختلاف أنواعها، حتى مع الدول المعادية للسلطان العثماني بالإضافة إلى استقبال البعثات الدبلوماسية.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن ترى كيف كانت العلاقات بين الجزائر ودول أوروبا الغربية؟

تميّزت بالاضطرابات، كثرت فيها الأتوات، والحروب والمعارك بزا وبحرا من البداية إلى النهاية على حدّ الدكتور مولاي بلحامسي من "1518م إلى 1830م" فالتوتر يكاد يكون مستمرا بين

الطرفين لهذا كانت الأطراف تلجأ إلى إبرام الصلح أو الهدنة. ويبدأ الصلح عادة بالمفاوضات ويتم بإبرام المعاهدة.

ماذا تعني العلاقات؟

أن يكون للجزائر سفراء في الدول التي لها علاقات معها.

بدأت علاقات الجزائر مع الأمم المسيحية بإرسال هذه الأمم قناصلها إلى الجزائر العاصمة، ثم بإرسال مبعوثين خاصين لها عند الضرورة.

والدول التي كانت لها علاقات مع الجزائر هي دول بحرية كاسبانيا، البرتغال، السويد، بريطانيا، فرنسا، الدانمارك،... وبعض الدويلات الإيطالية مثل البندقية، نابولي،... هذه الدول كان لها نشاط بحري كبير ومن الضروري أنها كانت تسعى إلى تخفيض التوتر الذي كان ينتج بين الفينة والأخرى لضمان تجارتها البحرية وسلامة سفنها. والظاهر تاريخيا أنها كانت تتسارع فيما بينها إلى إرسال سفاراتها وقناصلها إلى الجزائر لإطفاء النار التي تشتب مع الجزائر ورأب الصدع في العلاقات وإعادتها إلى سابق عهدها. وهنا نتساءل هل كان للجزائر سفراء في هذه الدول؟

الجزائر لم ترسل مبعوثين أو سفراء خاصين لفرنسا وانجلترا ما عدا بعض المبعوثين الذين كانت ترسلهم لمدة شهرين أو ثلاثة أشهر لحلّ مشكل ما ثم يعودون بعد ذلك من ذلك الرايس بكير مبعوث جزائري أرسل إلى مارسيليا لشراء الأسلحة وأخذ معه القمح بدلا من المال ونجح في ذلك نجاحا باهرا. أما بعثة أخرى فقد تعرضت إلى مذبحه في مارسيليا يوم 14 مارس 1620م بعض المصادر تقول أن عدد الضحايا 45 فردا في حين أن مصادر أخرى تشير إلى 80 ثمانين فردا بينهم 5 أو 6 أفراد كانوا السفراء والآخرين كانوا تجارا. والسبب في ذلك يعود إلى أن الجزائر كانت في موضع قوة ولم تكن في حاجة إلى الدول الأوروبية، التي كانت هي في أمس الحاجة إلى الجزائر وبالتالي كانت تقوم بإرسال قناصلها لها أو إليها.

الجزائر كان لها وكلاء في تونس وطرابلس ودمشق وإسطنبول وإزمير والإسكندرية وليس لها وكلاء في الدول المسيحية.

أصعب منصب بالنسبة للأوروبيين هو منصب القنصل الذي يزاول مهامه في الجزائر، وقد كتب الكثير من قناصلهم عمّا كانوا يعانونه في الجزائر. قنصلياتهم كانت تقع داخل مدينة الجزائر قرب الميناء وإقامتهم كانت في بوزريعة.

الجزائر كانت تلعب دور شرطة البحر في حوض البحر المتوسط، حيث لها الحق في تفتيش المراكب، وكان ذلك من حقها باعتراف من الدول الأوروبية الكبرى كفرنسا وبريطانيا. وهناك بنود وردت في الكثير من المعاهدات تقرّ بحق الجزائر في حجز أي مركب يحمل بضائع تابعة لدولة معادية للجزائر.

ومن هنا كانت كل الدول المسيحية تقدم "البقشيش" للجزائر حتي تسهل المفاوضات، وكانت الهدايا هي الشرط الأساسي لتسهيل المفاوضات.

وبالتالي كانت كل الدول الأوروبية تدفع الهدايا "ملبوسات، مأكولات، فواكه، أسلحة،.... لتسهيل المفاوضات. وهذا ما تشير إليه أغلب المصادر الأوروبية.

وأثناء غزو فرنسا للجزائر يوم 5 يوليو 1830م قالت: "يجب إزالة هذا النظام القائم على البقشيش".

الأتاوات: كانت العلاقات الخارجية قائمة كذلك على الأتاوات التي تدفع مالا أو سلاحا وذلك من اجل عقد المعاهدات "سنويا". وتعتبر الأتاوات الركييزة التي تقام عليها المعاهدات. وإلى جانب الأتاوات تقدم الهدايا للتمهيد من أجل إبرام هذه المعاهدات.

حوالي 70 معاهدة عقدتها الجزائر مع الدول الأوروبية 40 معاهدة منها مع فرنسا. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا 70 معاهدة؟

مع فرنسا تقريبا كل 10 عشر سنوات معاهدة، وبين المعاهدة والأخرى حرب. وسبب كثرة المعاهدات في نظر الغربيين يعود إلى أن الجزائر لا تحترم المعاهدات، وأنها تعيش بالحرب أكثر من السلم. وهذا الشيء موجود بكثرة في الكتب الأوروبية، ولكن ما نجده في رسائل الدايات لهذه الدول نجد أشياء وحجات أخرى تماما.

منها عدم احترام الفرنسيين للمعاهدات المبرمة مع الجزائر مثلا، اكتشاف الجزائريين لجنود فرنسيين في حصار مالطا يحاربون مع المسيحيين المعادين للجزائر. ووجدوا كذلك في المراكب الفرنسية ما يخالف المعاهدات المبرمة مع الجزائر!!! وهناك مثال آخر غش الجوازات وهو أن الفرنسيين كانوا يسلمون جوازات سفر فرنسية لبحارة تابعين لدول أعداء للجزائر.

ظاهريا الملك الفرنسي فرانسوا الأول كان مع العثمانيين وباطنيا كان مع المسيحيين "عام 1535م".

والمطالع على رسائل الدايات لحكام فرنسا مثلا يجدها مملوءة بالتتديدات حيث في إحداها يقول **الداي شعبان** للملك الفرنسي لويس 14: "...أنتم سُراق وخونة ولستم رجالاً...". للاطلاع أكثر أنظر Plante رسائل دايات الجزائر في مجلدين وانظر كذلك دي غرامون De Grammont رسائل القناصل لدولهم.

كان الفرنسيون يبرمون المعاهدات مع الجزائر ويحرضون عليها الدول المسيحية الأخرى بحجة وذريعة أن لهم معاهدة مع الجزائر.

فمثلا قضية الجذافين لو أطلق سراح الأسرى المسلمين "60% من الطاقم" بالبواخر الفرنسية لتوقفت السفن الفرنسية عن الملاحة، لذلك كان هناك تراخ في التنفيذ ولذا جعل الدولة الجزائرية تقلق وتلغي المعاهدات.

لقد تميّز الكثير من السفراء الأوروبيين بالتعصب الديني وتهريب الأسلحة⁽¹⁾ وإقامة الدسائس والمؤامرات وقد عاقبتهم الجزائر على ذلك.

وأثناء إحدى الغارات الفرنسية على الجزائر وفشل المفاوضات استعملت فرنسا قنابل جديدة جرّبتها على الجزائر، التي ردّت على ذلك بوضع قنصل فرنسا وإسمه "لوفاشي Le vachet" وربطه في فوهة أشهر مدفع في الجزائر آنذاك وهو مدفع "بابا مرزوق" وأطلقوا بعد ذلك قذيفة المدفع عام 1683م فتمزق جسده إربًا إربًا. وقد بقي هذا المدفع حتى عام 1830م حيث أخذه الفرنسيون إلى فرنسا ووضعوه في متحف مدينة "بريست Brest".

هذا وقد فعل الجزائريون نفس الشيء مع القنصل الفرنسي "بيول Piolle" الذي ربطوه هو الآخر في فوهة المدفع، وحدث له ما حدث للوفاشي.

والظاهر تاريخيا أن الفرنسيين يذكرون دائما Le vachet و Piolle، ويسكتون عن مقتل المبعوث الجزائري لفرنسا قينان ومحنته ومصيره في مرسيليا. وهو مبعوث جزائري نجح في مهمته الدبلوماسية ولكن في طريق عودته للجزائر انتشرت أخبار معادية للجزائر فذبح هو وكل الجزائريين الموجودين في مرسيليا.

يعيد المؤرخون صعوبة تطبيق الـ50 معاهدة مع فرنسا السابقة الذكر إلى العقلية الفرنسية في القرن 17م أو الرأي العام الفرنسي في القرن 17م الذي كان مقسما إلى قسمين.

(1) - 1609-1618م سرق سيمون دانسا Simone Dansa مدفعين من الجزائر، والظاهر هنا أن الجزائريين كانوا يقدسون الأسلحة. وقامت بين الفرنسيين وعلى رأسهم حاكم "بروفانس Province" باتصالات من أجل إعادة المدفعين. وقد أرسل الجزائريون قينان على رأس الوفد الجزائري، وقد نجح في مهمته، وفي طريق عودته إلى الجزائر انتشرت شائعات في مرسيليا ضد الجزائر انتهت بمقتل قينان والوفد المرافق له عام 1620م، ولم يصل ويرسل خبر ذلك إلى الجزائر التي أرسلت إبراهيم باشا صهر قينان لمعرفة أخباره.

وعندما وصلت أخبار مقتل الوفد الجزائري إلى الجزائر قامت بها القيامة، ومكر الجزائريون مكرًا كبيرًا بالبحرية الفرنسية وحجزوا الرعايا الفرنسيين الموجودين بالجزائر ونكلوا بهم وتكبدت مرسيليا خسائر فادحة من المراكب والأسرى والأموال مما جعل فرنسا تطلب إبرام معاهدة مع الجزائر عام 1628م تمت لصالح الجزائريين. ولكن بعد التوقيع عليها حاول الفرنسيون عرقلة تطبيقها، ومثل هذه المعاهدات بلغ عددها 50 معاهدة كانت صعبة التطبيق.

أ- رأي يرى بضرورة المعاملة الحسنة مع الجزائريين وهم التجار.

ب- والرأي الثاني هو الكنيسة خاصة في عهد الملك لويس 14 الذي كان هدفه حماية المسيحية، حيث شنّ غارة على جيجل عام 1664م وغارات ثلاث على الجزائر في 1683، و1684م و1688م وفي عام 1689م أرغم على معاهدة غير بموجبها سياسته وتخلّى عن قوله الذي كان يقوله وهو: "أنني لا أعترف إلا بالدولة العثمانية، أما الجزائريون فهم لصوص وقطاع طرق يجب قطع أيديهم...".

ومنذ سنة 1689م تنافس الفرنسيون والإنجليز على حياد الجزائر وكسب ودّها وتأييدها واعترفتا بها. لأن فرنسا كانت في حرب مع الهولنديين، والبريطانيين نظرا للاختلاف في المذهب الديلي "فرنسا كاثوليكية وبريطانيا وهولندا بروتستانتيان" هذا من جهة ومن جهة أخرى نظرا للمصالح التجارية ولذلك كانت فرنسا في حاجة للتقاهم مع الجزائر.

وأهم ما يمكن استخلاصه من العلاقات الجزائرية الفرنسية أنها كانت عاطفية لأدنى سبب تتدلح الحرب ولأدنى سبب تتوقف.

علاقات الجزائر مع إسبانيا 1516-1786م:

تميّز العلاقة بين الدولتين خلال المرحلة الممتدة ما بين 1516م و1786م بالعنف والحروب برّاً وبحراً، ونتيجة عجز إسبانيا في الانتصار على الجزائر رضخت للأمر الواقع وذلك بعقدها لمعاهدة معها عام 1786م، وهنا على الطالب ان يتذكر أنه قبل 1786م كانت العلاقات متوترة تسودها الحروب ولكن بعد هذه السنة قلت. وكانت هناك بنود سرّية محفوظة في الأرشيف، والبنود السريّة لا يعرفها إلا المتفاوضون. فمثلا معاهدة الجزائر مع البرتغال عام 1810م تحتوي على بند سرّي للغاية.

وبالتالي فإن الدول البحريّة كانت تخاف على أمن ملاحتها في البحر، ولذا سعت إلى كسب ثقة الجزائر.

في البنود يظهر الدور البارز الذي كانت تحتله الجزائر "دور الشرطي".

في المعاهدات نكتشف بنودا تحدد أماكن الجهاد البحري، وهذا يدل على أنه كان معترفاً به دولياً، وهناك بنود تسمح للجزائريين بملاحقة أعدائهم حتى مسافة "طلقة مدفع" "Portée de canon" من الميناء، والظاهر تاريخياً والمؤكد أن المؤرخين الأوروبيين تجاهلوا هذه المعاهدات الرسمية.

علاقات الجزائر مع تونس والمغرب وليبيا:

أ- مع تونس:

لم تكن العلاقات الجزائرية التونسية حسنة وودية كما يجب وذلك لعدة ظروف تاريخية فقد كانت الجزائر تعتبر تونس إقليماً تابعاً لها، بحكم أنها هي التي طردت الإسبان منها نهائياً عام 1574م وضمته إلى الدولة العثمانية التي جعلت تعيين باشواتها من اختصاص باي لاربايات الجزائر، وعلى هذا الأساس كانت الجزائر تحاول باستمرار أن تجعل هذه التبعية حقيقة ملموسة، لكن تونس كانت ترفض ذلك وترى أنها مثل الجزائر تتبع رأساً إلى الباب العالي، وأكثر من ذلك كان لتونس أطماع في إقليم قسنطينة موروث من العهد الحفصي. حيث كانت الحكومة التونسية قبل الفتح العثماني تسعى لإخضاع المغرب الأوسط لنفوذها، لكنها كانت تصطدم مع القوى المحلية أو مع القوى المغربية التي كانت هي الأخرى تريد بسط نفوذها عليها، لكن دخول الأتراك إلى الجزائر قلب هذه الأوضاع التاريخية. فقد انتقلت الجزائر التي أصبحت قاعدة عثمانية في شمالي إفريقيا إلى وضع الهجوم وصارت تسعى إلى إخضاع كل من تونس والمغرب الأقصى إلى السيادة العثمانية، وبالتالي إلى نفوذها هي. لقد بدأ النزاع بين تونس والجزائر في مطلع القرن 17م بسبب الخلاف على الحدود الذي كان يؤدي إلى عمليات غزو واسعة حيث تدخل الجزائريون أكثر من مرة في هذا القرن مستغلين منازعات الأسرة المرادية التي خلقت مناخاً مناسباً للتدخل الجزائري، كما كان لقبائل الحدود الغربية دور في الاصطدام العسكري بين تونس والجزائر خاصة في عهد يوسف داي، وهو ما كان سبباً في رسم الحدود بين الإيالتين العثمانيتين. ومع أواخر القرن 17م لجأت كل من الجزائر وتونس إلى إقحام إيالة طرابلس ومملكة المغرب في منازعاتهما فتحالفت الجزائر مع طرابلس وتحالفت تونس مع المغرب الأقصى.

وفي مطلع القرن 19م تشير الكثير من المصادر إلى أن حكام الجزائر بالغوا في تسلطهم على حكام تونس إلى درجة التضييق على اقتصاديات تونس والإضرار بأسواقها والتحكم في حكامها، إلى أن جاء أبو محمد أو "حمودة باشا" فرفض هذا التسلط وألغى كل ما بينه وبين داي الجزائر ورفض تقديم الضريبة المقرر دفعها لخزينة الجزائر "ألف سكة مع هدايا أخرى من زيت وغيرها" وقام بإيواء الحاج مصطفى باي قسنطينة المعزول والمتمرد على الحكومة الجزائرية في شهر ماي عام 1803م، وطرد جميع الجزائريين المقيمين بتونس وتعذيب الأسرى منهم.

ويومئذ استولى الجزائريون على (3) ثلاثة مراكز تونسية وعندئذ ألغى حمودة باشا كل المعاهدات الموجودة مع الجزائر.

وبدعم تونسي تحرك الحاج مصطفى لاسترجاع قسنطينة يوم السبت 24 يناير 1807م وأشرف على الاستيلاء عليها فقاومه الجيش الجزائري مقاومة عنيفة دامت شهرا فانهزم الجيش التونسي يوم 3 مايو 1807م.

وبعد ذلك جهز حمودة باشا جيشا عرمرمًا قوامه 57 ألف مقاتل وجعله تحت قيادة يوسف صاحب الطابع وبعثه نحو الجزائر في 29 مايو 1807م اصطدم مع الجيش الجزائري على ضفاف نهر سراط أو سلاطة كما سمّاه المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف.⁽¹⁾ ولخيانة وقعت من طرف قيادة الجيش الجزائري انتصر الجيش التونسي واستولى على جميع مخلفات الجيش الجزائري المنهزم.⁽²⁾

وبعد ذلك عازمت حكومة الجزائر الانتقام لهذه المعركة، وعندما رأت كثرة عدد الجيش التونسي برئاسة يوسف صاحب الطابع وسليمان كاهية يوم 13-06-1808م توقفوا عن الهجوم وعادوا

(1) - أنظر أحمد بن أبي الضياف، اتحاق أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج3، ط50، الدار التونسية للنشر، تونس، 1963م، ص 37.

(2) - نفسه.

من حيث أتوا. وفي **نوفمبر 1808م** وقع الصلح بين الدولتين، غير أن الداى الجزائري فيما بعد نقم على المعاهدة السالفة الذكر فحاول نقضها بإرساله لأسطول جزائري لمهاجمة تونس يحتوي على 14 مركبا تحت قيادة **الرايس حميدو** فاصطدم بمراكب تونس يوم **7 مايو 1811م** واستولى **الرايس حميدو** على سفينة أمير البحر التونسي **محمد المورالي** المحتوية على **38 مدفعا** ثم تقدم إلى **جزيرة جربة**، وبالقرب من **جزيرة قرقة** انتصر الأسطول الجزائري على **13 مركبا تونسيا**. وفي عام **1812م** احتل الجزائريون **خليج حلق الوادي**. وفي غمار هذه الأحداث تدخل الباب العالي لتهدئة الأوضاع فلم ينجح. وعندئذ امتنعت تونس عن دفع الضرائب للجزائر التي ردت على ذلك بإرسال حملة عسكرية لتونس يوم **23 يوليو 1812م** التي توغلت في التراب التونسي حتى وصل إلى حلق الوادي "تشير بعض المصادر إلى أن الجيش الجزائري وعلى رأسه **محمد بوكابوس** كان مدعما من طرف أهل ولايتي وهران وقسنطينة".

أين تصدى لها الجيش التونسي تحت قيادة الوزير التونسي **يوسف صاحب الطابع** إلا أن الجيش الجزائري انتشرت بين أفرادها الفوضى والاضطرابات وعمهم القلق من جزاء تغير الموقف بالجزائر فانسحب الأسطول الجزائري من تونس وتوقف الجيش عن تتبع الغزو فعاد إلى الجزائر، إلا أن كتائب تونس لاحقته محاولة الهجوم على قسنطينة فردّها **محمد نعمان** وفي عام **1817م** توسطت **إسطنبول** لرفع الخلاف.

وكان لهذا الصراع بين تونس والجزائر الأثر البالغ والدافع الرئيسي الذي أدى فيما بعد بالباي التونسي إلي تأييد فكرة الاحتلال الفرنسي للجزائر وتهنئة قائد الحملة بالإنصار، ظنا منه أن هذه الحملة العسكرية جاءت لتأديب الداى الجزائري ثم تعود من حيث أتت.

ب- مع المغرب الأقصى وليبيا:

علاقات الجزائر مع المغرب الأقصى كانت مضطربة بسبب الصراع على الحدود بين الدولتين "سيتم التطرق إلى العلاقات بين الدولتين بالتفصيل في محاضرات الدولة السعودية والدولة العلوية لاحقا".

أما علاقات الجزائر مع طرابلس "ليبيا حاليا" فقد كانت حسنة جدا "سيتم التطرق إليها هي الأخرى في محاضرة الفتح العثماني لليبيا ومراحل الحكم العثماني فيها".

والظاهر تاريخيا أن هذه الدول الأربع آنذاك لم تكن تعرف التضامن ولم تكن منتبهة للمصلحة العامة ولم تسع للمصلحة المشتركة ولم تفهم إطلاقا معنى المصلحة العامة والسياسة التي تخدمهم، زد على ذلك تدخل الأوربيين في شؤونهم وبثهم لسياسة فرق تسد، ومن بين المدركين والمنتبهين القلائل لهذه السياسة، ولهذا النزاع نذكر **الداي شعبان** الذي قال: "لويس 14 في رسالة له عام 1694م: "...لو سقطت الجزائر لسقط الوجود العثماني في شمال افريقيا ولا سقطت الدولة العثمانية فيما بعد...".

وهكذا صدق قول **الداي شعبان** ففي عام 1830م عندما سقطت الجزائر سقطت بعدها تونس عام 1882م ثم سقطت ليبيا عام 1911م وبعد ذلك سقطت الدولة العثمانية بكاملها عام 1924م.

العلاقات الجزائرية الانجليزية:

قبل عام 1816م:

كثيرا ما كانت حسنة مما جعل السفن الانجليزية تشق عباب البحر المتوسط من جبل طارق إلى مالطة دون أي خطر. وكانت المنافسة البريطانية الفرنسية تدفع حكومة لندن إلى الوقوف بجانب الجزائر في كل توتر أو أزمة أو حرب تقع بين الجزائر وفرنسا. وهذا الدعم كثيرا ما كان في شكل بيع الأسلحة أو التزويد بالمعلومات العسكرية. غير أنه حدثت أزمة كبيرة بين بريطانيا والجزائر في عام 1620م وهي الأولى من نوعها حيث أرسل أسطول إنجليزي لقمع نشاط البحرية الجزائرية، ورغم عدد السفن الحربية الكبير التي وصلت أمام الجزائر فإن البحرية الجزائرية واصلت نشاطها وتحديثها.

وفي عام 1621م عاد الإنجليز لإحراق السفن الجزائرية إلا أن مهمة التخريب هذه فشلت هي الأخرى. ثم تكررت الغارات في أعوام 1653م، 1659م، 1662م، 1663م، 1678م،... الخ.

وهنا نستنتج أن العلاقات بين الجزائر وبريطانيا في القرن 17م تارة تكون حسنة وأخرى تكون متوترة.

أما في القرن 18م فقد عرفت العلاقات تارة أيام صحوٍ وأخرى فترات ظلام لعدة أسباب منها شخصية الدايات، هناك دايات يحبون الإنجليز وآخرون يكرهونهم. كما أن شخصية القناصل هي الأخرى لعبت دورا مهما في العلاقات بين الدولتين. هناك من يحسن المعاملة وهناك من لا يحسنها.

زد على ذلك معاملة فرنسا ودبلوماسيتها، فإذا كانت نشطة تخلق نوعا من الفتور في العلاقات الجزائرية البريطانية وعندما لا تكون نشطة يكون العكس. مثلا: **الداي محمد عثمان** كان يكره الإنجليز، وكانت فرنسا دائما تسعى إلى تسميم العلاقات بين الجزائر وانجلترا.

وفي مطلع القرن 19م نشاهد التوتر يعود من جديد لعدة أسباب منها:

- المنافسة البريطانية الفرنسية على الشرق الجزائري والتجارة فيه وصيد المرجان. فهناك داي يكلف فرنسا وآخر يكلف انجلترا.

- والسبب الرئيسي الذي جعل انجلترا تشن غارة أخرى في مطلع القرن 19م على الجزائر يعود إلى جزيرة مالطة التي سيطر عليها الإنجليز عام 1800م بعد سيطرتهم على جبل طارق وبعض المراكز في جزر البليار.

ففي رأي الانجليز المالطيون هم رعايا انجليز يسافرون بجوازات سفر بريطانية. اما في رأي الجزائريين الأمر ليس كذلك ولا بد أن تتعرض سفنهم إلى التفتيش من طرف الجزائريين الأمر الذي أدى إلى نشوب خلاف بين الدولتين حيث طلب الإنجليز من **الأميرال نلسون** بالتخطيط للقضاء على البحرية الجزائرية بين سنتي 1803-1805م غير أن الجزائر إستعدت لذلك "الحرب" الأمر الذي أدى بالإنجليز إلى التراجع.

وفي يوم 7 يوليو 1807م أبرم إتفاق **تليست** بين نابليون بونابارت وقيصر روسيا يحتوي على بند سرّي يخصّ الجزائر، يشير إلى أن نابليون يقوم باحتلال الجزائر لفائدة ملك سردينيا الذي ضاعت

منه مقاطعات في إيطاليا. وفي نفس الوقت نجد حملة صحفية ثقافية إنجليزية تدعو إلى احتلال الجزائر. وهنا يشير أصحاب الدعاية إلى الموقع الإستراتيجي للجزائر وخيراتها ثم التوطين خاصة وأن بريطانيا في ذلك الوقت كانت تعرف فائضا وإكتضاضا في السكان.

وفي عام 1808م وصل الرائد "الكومندان" بوتان للتحضير للغارة بالدراسة والمعلومات من أجل غزو الجزائر إلا أن الأوضاع بعد ذلك بقيت على حالها، لا فرنسا ولا بريطانيا غزت الجزائر.

وبعد مؤتمر فيينا عام 1815م كلفت الدول الأوروبية بريطانيا بإلغاء الرق في الجزائر. لذلك قامت بتحضير حملة عسكرية شارك فيها الهولنديون بدعوى قمع القرصنة وإطلاق سراح الأسرى النصارى عام 1816م، ولكن في الواقع نلاحظ أن الحملة البريطانية على الجزائر كانت لها أسباب أخرى وليس قمع القرصنة وإطلاق سراح الأسرى الأوربيين.

ففي عام 1815م وقعت في بلجيكا معركة واترلو بين نابليون المهزوم وبروسيا وبريطانيا والقوات الملكية الفرنسية المنتصرين عليه. وبالتالي نلاحظ أن المنتصرين في هذه الحرب أصبحوا يفكرون في السيطرة والمزيد من ذلك على البحار، وبالتالي أرادت أن تكسب انتصارا آخر على الجزائر في عام 1816م لكي تكون سيدة المتوسط دون منافس بعد انتصارها في "واترلو" هذا وقد تزعم هذه الحملة الإنجليزية إكس موث الإنجليزي والأميرال كابيلان الهولندي.

وقد وقعت في عهد الداوي عمر في أوت 1816م حيث وصل الجزائر الأسطول الضخم المزدوج "الإنجليزي الهولندي" وبدأت معارك ضارية بالجزائر العاصمة بين الغزاة والجزائريين وخير شاهد عيان على ذلك نقيب أشرف الجزائر الشريف زهار. "للاطلاع أكثر عن الموضوع انظر: أحمد الشريف الزهار" نقيب أشرف الجزائر" مذكراته تحقيق أحمد توفيق المدني، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م، ص 121 وما بعدها.

الخلاصة التاريخية التي يمكن استخلاصها من علاقات الجزائر التاريخية هي أن الجزائر استطاعت في الفترة الممتدة بين القرن 16م ونهاية القرن 18م اكتساب هيبة دولية، نتيجة لتفوقها الحربي في البحر المتوسط.

وهذا ما دعا معظم الدول الأوروبية إلى إقامة علاقات دبلوماسية معها "فرنسا، إنجلترا، إيطاليا، دول شمال أوروبا" وإلى اكتساب مودتها، بحيث كانت الجزائر الدولة الوحيدة التي التزمت الدول البحرية(*) "الولايات المتحدة الأمريكية، إنجلترا، فرنسا، الدانمارك، هولندا، نابولي، سردينيا" بدفع أتوات سنوية لها مقابل حماية سفنها من سائر عمليات القرصنة أثناء مرورها في حوض البحر المتوسط الغربي، وقد ظلت إسبانيا الدولة البحرية الوحيدة التي لا يوجد بينها وبين الجزائر معاهدة سلام بسبب استمرار الاحتلال الإسباني لميناء وهران، وبعد جلاء الإسبان عنه في عام 1792م وقعت الدولتان صلحاً إشتراط أحد بنوده بأن تدفع إسبانيا للجزائر أتاوة سنوية بالإضافة إلى إلزامها بتقديم هدايا كبيرة إلى الدولة الجزائرية كلما وفد عليها قنصل إسباني جديد.

وقد استمرت هذه السيادة البحرية للجزائر في حوض البحر الأبيض المتوسط الغربي حتى بداية القرن التاسع عشر. حيث أخذت في الضعف والانحسار نتيجة للعوامل التالية:

أ- قيام الثورة الصناعية في أوروبا. وهو ما مكّن الدول الأوروبية من امتلاك أساطيل وأسلحة متطورة تفوّقت على الأسطول الجزائري وسلاحه.

(*)- يشير بعض المؤرخين إلى أن الجزائر كانت أول دولة تعترف باستقلال الولايات المتحدة عن التاج البريطاني. وعليه تعهدت بدفع أتوات للدولة الجزائرية إلى جانب الهدايا اللّهم في بعض الاصطدامات العسكرية التي وقعت في البحر بين سفن الدولتين لاختلاف المصالح وتضاربها وسوء التفاهم كما حدث في عهد الداوي عمر عام 1816م الذي ذهب ضحيته الرئيس حميدو فبكاه الجزائريون دايا وشعبا، أما الأمريكيون فقد تملكهم غيظ كبير وصاروا يضربون الأرض بأرجلهم على موته. "للإطلاع أكثر عن الموضوع راجع، أحمد الشريف الزهار... المصدر السابق، ص، 117 وما بعدها". وأنظر كذلك كتاب **Albert, Devoulx-Leraïs Hamidou**.

ب- ظهور التقارب الأوربي بعد صلح تلمست عام 1807م ووضع مشاريع أوروبية إستعمارية لاحتلال الجزائر.

ج- ضعف الأسطول الجزائري نتيجة تحطم معظم قطعه في معركة نفايرين بجنوب اليونان عام 1827م، مما سهّل نجاح الحملة الفرنسية لاحتلال الجزائر في عام 1830م. وآخر حقيقة تاريخية يمكن الوصول إليها من خلال مطالعتنا واستعراضنا للعلاقات الدولية التي كانت تربط بين الجزائر والعالم الخارجي، هي وجود الكيان الجزائري في العصور الحديثة الذي هو امتداد للكيان الجزائري العريق، وهي الحقيقة التي حاول المستعمرون وعلى رأسهم الفرنسيون تزييفها ونفيها.

قائمة المصادر والمراجع المعتمد عليها في تاريخ الجزائر العثمانية

أ- المصادر:

1- باللغة العربية:

- أحمد بن أبي الضياف اتحاق أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، تحقيق لجنة من كتاب الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، الجزء الثاني، الطبعة الثانية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1977م.
- أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي.
- الحاج أحمد الشريف الزهار "تقيب أشرف الجزائر مذكراته". تحقيق أحمد توفيق المدني، الطبعة الثانية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1980م.
- حسن الوزان، وصف إفريقيا ترجمة محمد دجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م.
- حمدان بن عثمان خوجة، المرأة تقديم وتعريب وتحقيق د. محمد العربي الزبيري، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط2، الجزائر، 1982م.
- خير الدين بربروس، مذكراته، ترجمة الدكتور محمد درّاج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 1431هـ-2010م.
- رسالة أهالي مدينة الجزائر إلى السلطان سليم الأول سنة 1519م ترجمها وحققها عبد الجليل التميمي ونشرها في المجلة التاريخية، العدد:6، تونس، جويلية 1976م.
- فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، الطبعة الأولى، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1981م.
- كاتب مجهول، غزوات عروج وخير الدين.
- محمد بن رقية التلمساني، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1626.
- محمد بن محمود ابن العنابي، السعي المحمود في نظام الجنود. "تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم الجزائري"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1983م.

- وليام سبنسر، الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب وتقديم عبد القادر زبادية، دار القصة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2006م.
- وليام شالر "مذكراته" قنصل أمريكا في الجزائر 1816-1824م " تعريب وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

2- باللغة الأجنبية:

- Albert Devoux, le Raïs Hamidou, « notice biographique sur le célèbre corsaire Algérien du XIIIe siècle de l'hégire, présentation de Abderrahmane, éditions Grand Alger Livres, 2005.
- Diego de Haïdo, histoire des Rois d'Alger, traduit de l'espagnol par Henri Delmas de Grammont (la revue Africaine, 1880-1881), présentation de Abderrahmane Rebabi, collection histoire, éditions grand Alger Livres, Algérie, 2004.

ب- المراجع:

1- باللغة العربية:

- د. إبراهيم حسن شحاته، أطوار العلاقات المغربية العثمانية "قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون "1510-1947م"، الناشر منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر، 1981م.
- د. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر هجري (16-20م)، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م.
- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي "1500-1830م"، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م.
- أحمد السليمانى، النظام السياسي الجزائري في العهد العثماني، دار الكتاب، الجزائر، 1993م.
- أحمد توفيق المدني محمد عثمان باشا، دار الجزائر "1766-1791م" سيرته حروبه، أعماله، نظام الدولة والحياة العامة في عهده، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.

- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثة مئة سنة بين الجزائر وإسبانيا "1492-1792م"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1976م.
- بسام العسلي، خير الدين بربروس، ط1، دار النفائس، بيروت، لبنان، 1400هـ-1980م.
- شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية "تونس، الجزائر، المغرب الأقصى، من الفتح الإسلامي إلى سنة 1830م، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، 1983م.
- عائشة غطاس، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، المركز الوطني للدراسات والبحث في تاريخ الحركة الوطنية، الجزائر، 2007م.
- عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن 17م "1614-1619م"، رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، تحت إشراف مولاي بلحميسي، معهد التاريخ، جامعة الجزائر.
- د. عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية، عدد: 6، جويلية/يوليو 1976م، مطبعة الاتحاد العام التونسي للشغل، تونس.
- د. عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي "الجزائر وتونس وليبيا"، طبعة ثانية منقحة ومزودة، منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، زغوان، 1985م.
- عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث "من عصر النهضة إلى مؤتمر فيينا"، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1971م.
- عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثالث، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1402هـ-1982م.
- عزيز سامح التتر، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية "ترجمة محمد علي مراد"، دار النهضة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1409هـ-1989م.
- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997م.
- عمار عمورة، الموجز في تاريخ الجزائر، دار ربحانة، الجزائر، 2002م.

- مبارك بن محمد الهيلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م.
- محمد بن عمرو الطمار، تلمسان عبر العصور، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهبتها العالمية قبل 1830م، منشورات وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية بالجزائر، 1976م.
- د. ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية "1800-1830م"، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1979م.
- د. ناصر الدين سعيدوني، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر "العهد العثماني"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- د. ناصر الدين سعيدوني، دراسات في الملكية العقارية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986م.
- ناصر الدين سعيدوني، تاريخ الجزائر في العهد العثماني "ويليه ولايات المغرب العثمانية الجزائر، تونس، طرابلس، الغرب"، دار البصائر، الجزائر، 2013م.
- نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العصر التركي، ط2، دار الحضارة، الجزائر.
- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، "تاريخ الجزائر الحديثة"، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.

2- باللغة الأجنبية:

- Kaddour M'hamsadji, Sultân Djezâïr Suivi De Chansons Des Janissaires Turcs D'Alger (Fin Du XVIII^e Siècle) Par Jean Deny, Office Des Publications, Universitaires, 2^{ème} Edition, Alger, 2005.
- Kamal Chehrit, Les Janissaires « Origines Et Histoire Des Milices Turques Des Provinces Ottomanes Et Tout

- Spécialement Celle D'Alger », Edition Grand Alger Livres, Alger, 2004.
- Moulay Belhamissi, Alger La Ville Aux Mille Canons, Entreprise Nationale Du Livre, Alger, 1990
 - Moulay Belhamissi, Alger, l'Europe Et La Guerre Secrète (1518-1830), Editions Dahlab, Alger.
 - Moulay Belhamissi, Histoire De La Marine Algérienne, Entreprise Nationale Du Livre, Alger, 1984.
 - Moulay Belhamissi, Marine Et Marins D'Alger (1518-1830), Tome I, Les Navires Et Les Hommes, Bibliothèque Nationale d'Algérie, 1996.
 - Moulay Belhamissi, Marine Et Marins D'Alger (1518-1830), Tome II, Face à L'Europe, Bibliothèque Nationale d'Algérie, 1996.
 - Moulay Belhamissi, Marine Et Marins D'Alger (1518-1830), Tome III, Grandeur et Décadence, Bibliothèque Nationale d'Algérie, 1996.

الفتح العثماني لليبيا 1551م

مقدمة:

كشأن سائر البلاد الإسلامية المطلة على البحر الأبيض المتوسط تعرضت ليبيا قبل الفتح العثماني لها إلى هجمات صليبية استعمارية من قبل الإسبان عام 1510م ولكن مكوثهم بها لم يطل حيث سلموها في عام 1530م إلى بقايا الغزاة الصليبيين المعروفين بفرسان القديس يوحنا.

الفتح العثماني لليبيا والظروف المحيطة به:

النجاح الذي أحرزه العثمانيون في كل من الجزائر وتونس ضدّ الإسبان شجع اللّبيين على الاستنجد بالعثمانيين لتحرير طرابلس من فرسان القديس يوحنا وقد رحب السلطان سليمان القانوني بهذا النداء الإسلامي فأرسل ثلاثة جيوش بقيادة مراد أغا، سنان باشا ودرغوث تمكنت من تحرير طرابلس في 14 أوت 1551م وبدءا من 16 أوت 1551م أصبحت " طرابلس الغرب" ليبيا" ولاية عثمانية وقد اعتاد غالبية المؤرخين على تقسيم الإدارة العثمانية لليبيا إلى مرحلتين -المرحلة الأولى- تبدأ من سنة 1551-1711م-المرحلة الثانية تبدأ من سنة 1835-1911م، أما فترة الأسرة القرمانلية التي عدت مرحلة فصل بين المرحلتين فبعضهم يعدها استمرارا للإدارة العثمانية ولكنها بثوب آخر تتناسب مع المراحل الزمنية التي فرضتها التطورات التي أسفرت عن الثورة الصناعية والاحتكاك بالغرب الأوربي وعلى العموم فإن غالبية المؤرخين يؤكدون على أن مراحل الحكم العثماني - والإدارة العثمانية مرّت بليبيا بعدة مراحل وهي:

العهد العثماني الأول 1551-1711م:

أ- عهد البكركي " البيلربايات" 1551-1606م: بدأ منذ تحرير ليبيا " طرابلس" وبعد اعتراف الليبيين بولائهم للخليفة العثماني وأبرز أدار دفة الحكم في ليبيا إبان هذه المرحلة من الولاية العثمانيين مراد آغا 1551-1555م، كان قائد الحملة العثمانية الأولى التي أرسلها السلطان

لتحرير طرابلس وهو أول من مارس صلاحيات الولاية على ليبيا باسم السلطان العثماني حيث عمل بعد توليه الإمارة على نقل مركز إدارته من ثاجوراء إلى مدينة طرابلس الغرب واتخذ قلعتها مقرا دائما له، كما حوّل الكنيسة فيها إلى مسجد وانصرف للاهتمام بتنظيم أمورها الإدارية والعسكرية وحصّن المدينة وبنى الاستحكامات حولها ورمم القلعة وأصلح أبراجها فتمكن بفضل ذلك من إحباط محاولة فرسان القديس يوحنا الرجوع على طرابلس في عام 1552م ومدينة زوارة التي تبعد عنها 120 كلم، وقد نال بذلك مراد أغا شهرة كبيرة بانتصاره على الفرسان وتحسبا من تكرار الهجوم على ليبيا انصرف إلى إنشاء حصون إضافية أخرى واهتم بالطرق وأقام نقاط حراسة عليها، وفتح الآبار ولاحق اللصوص وقطّاع الطرق في كل مكان وقد ظل على رأس ولاية ليبيا حتى وفاته سنة 1555م.

الريس طرغوث أودرغوث: 1555-1565م: تولى إيالة ليبيا بعد مراد آغا وإليه ينسب توطيد الحكم العثماني فيها عمل في بادئ الأمر على إخضاع المناطق الداخلية وضرب بشدة مثيري الفوضى والشغب، ولاحق القبائل البدوية الثائرة وحذرهما من مهاجمة بعضها البعض وأمن الطرق وقضى على اللصوص وقطاع الطرق للسائحين في مختلف مدن الولاية فغدت الولاية تعيش في أمان منقطع النظير نظّم الجيش وكلفه السهر على الأمن، فرض رقابة شديدة على لانكشارية ومنع الجباه من إتباع الظلم، و لضمان سلامة الأهالي ومراقبة الإنكشارية من التطاول على سكان المدينة ومحاولتهم سلب أرزاقهم أقام لهم ثكنات خاصة بهم بالقرب من القلعة وحدد لهم أوقات تجولهم في الأسواق، وبعد تأكده من تحقيق الأمن والاستقرار انصرف إلى الاهتمام بالمدينة فرمم أسوارها وجدّد استحكاماتها وبنى أبراجا إضافية أخرى وأنشأ دارا للبارود جنوب القلعة، وبنى مسجدا باسمه لا يزال حتى الآن.

- انفراد الريس درغوث بحكم ولاية ليبيا حكما مركزيا فحجب الثقة عن قائد الجيش وآغا الإنكشارية وحملهما مسؤولية الاضطراب ونشر الفساد والإخلال بالأمن، وعهد للقاضي مسؤولية إنصاف المظلومين وطلب إليه إعلامه بأبسط المخالفات وأسند

للأهالي بعض المناصب الإدارية البسيطة وشجعهم على الزراعة والصناعية كما أنه ساهم في تنشيط الحياة الاقتصادية، كما أنه عمل على تشجيع الأعمال البحرية وأشرف بنفسه عليها ووضع عائداتها في خزانة الولاية وسخرها لتحسين أوضاعها ولاسيما عند تعرضها للكوارث الطبيعية كما حدث لها عام 1557م عندما تعرضت لمرض الطاعون الذي ذهب ضحيته الكثير بإمداده بالطعام والمؤن كما طلب من اسطنبول تزويده بالكساء والعتاد.

- كما أنه نظم الإدارة تنظيماً جيداً وعيّن القضاة وقادة الجيش وألزم الإنكشارية بالطاعة وحذرهم بشدة من معاملة الأهالي بقسوة ومنعهم من تحصيل أموال الجباية أكثر مما هو مفروض عليهم وخصص للجند ثلاثة أيام للتجول داخل المدينة.

و على العموم لقد ذاع صيته كأبرز الولاة الأتراك خلال العهد العثماني في ليبيا وقد أحتل هذه المكانة نتيجة لنجاحه في جميع الأعمال المذكورة وانتصاراته التي حققها في حملاته البحرية على قواعد القراصنة الأوربيين في جنوب إيطاليا وفي صدّه للتحالف المسيحي ضدّ طرابلس عام 1560م وقد استشهد درغوث أثناء الحصار العثماني لجزيرة مالطة عام 1565م وكانت نكبة الدولة العثمانية وليبيا عظيمة الأثر، فبكاه الليبيون بأسى شديد وعمّ الحزن مختلف أرجاء الولاية، وعقب مقتل درغوث واستشهاده أمر الأسطول بفك الحصار عن مالطة ونقل جثمان درغوث إلى ليبيا حيث دفنوه في مسجده في 24-06-1565م وغدا قبره يتمتع بقدسية خاصة لدى سكان الولاية فما من وال قدم الولاية إلاّ وقدم الذبائح وقرأ الفاتحة على قبره.

والجدير بالذكر أن حصار مالطة استمر ثلاثة أشهر أفقد الأتراك أكثر من خمسة وثلاثين ألف "35" رجل، في حين فقدت ولايات الشمال الإفريقية ما يزيد على خمسة عشر ألف "15" ألف رجل.

وفي الأخير ما يجب الإشارة إليه إلى أن المصادر تتفق جميعها على القول: إن الرئيس طرغوث أو درغوث كان يتمتع بقدرة فائقة على حسن الإدارة وأسلوب المعاملة، فهو لا يعتمد

القسوة منها إلا عندما يفشل في الإقناع، ولا يستخدم القسوة والصرامة إلا على اللصوص وقطاع الطرق، لأنه يعدّهم أعداء القانون والنظام، ولم يعرف عنه اللجوء إلى اللين إلا في ولاية ليبيا لحبه الشديد لها وتعلقه بها.

وبموت درغوث انتقل حكم البلاد إلى الفرقة العسكرية الإنكشارية التي أغرقت البلاد في بحر من الفوضى والفتن والثورات المحلية لان الولاة الذين خلفوا الرئيس لم يكونوا على مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقهم وكان بعض منهم سببا مباشرا في توسيع دائرة الفوضى وتعميق الصراع بين الجند وسئم الأهالي حياة الفوضى :لأن ليبيا تركت فترة بدون وال" فراسلو السلطان ملتسمين منه وضع حد لوضعهم فكلف يحي باشا بإدارة الولاية.

إدارة يحي باشا: فور وصوله الولاية عمل على ضبط الانكشارية وإلزامها بالطاعة، وضرب المفسدين من الجند وأعدم عددا منهم كما قطع دابر المشاغبين وقطاع الطرق واللصوص فخاف الجميع ولزموا الهدوء والسكينة فاستقامت الأمور وعادت الحياة إلى الولاية وجدد سفن الجهاد البحري ورسم لها خطط تحركها البحرية وإذا كانت المنية قد وافته فقد حقق إنجازات إدارية جيدة جدا قدر الأهالي جهده فبكوه أسفا. لم ترسل الدولة العثمانية عقب وفاة يحي باشا وال آخر يدير شؤون البلاد حيث استغلت الإنكشارية ترك الولاية.

بدون وال فعاشت فسادا وعم الظلم مختلف المدن الليبية حيث أعلن أهالي غريان الثورة فهاجوا الحامية التركية وحرضوا سكان الدواخل على إعلان الثورة لطرده الأتراك وجنودهم من بلادهم وعندما وصلت أخبار ذلك إلى السلطان كلف عالج على بإدارة الولاية* وهنا تعددت الروايات حول من خلف الرئيس طرغوث، فبعض المصادر تذكر أن يحي باشا هو الوالي الذي خلف طرغوث في حين تذكر بعض المصادر التركية الأخرى بأن عالج علي رافق جثمان الرئيس طرغوث إلى مثواه الأخير في طرابلس، ولا يستبعد أن يكون هو الذي تولى إدارة الولاية.

1- و بمجرد وصول علج علي إلى طرابلس جهز حملة من الإنكشاريين لإخضاع ثوار تاجوراء وبعد إخضاعهم التفت إلى بقية المناطق الثائرة وحينما أطمأن على أمن المدن واستقرارها وجّه اهتمامه لتأديب الإنكشارية، فقطع رؤوس بعض الجند الخارجين على القانون وطبق عليهم الإجراءات التي طبقت زمن الرئيس درغوث، ثم توجه نحو تشجيع الأعمال البحرية حيث أعدّ السفن اللازمة وتنظيمها وتنظيمها جيدا فأصبحت السفن الليبية تجوب عباب البحر واثقة بقوتها وتنظيمها. كما عمل علج علي على تسوية أوضاع الولاية حيث أعاد بناء أبراجها التي تهدمت ورمم أسوارها وقلاعها وجدد مصانع البارود وحصن ميناء طرابلس.

2- وفي عام 1568م وصله فرمان سلطاني يقضي بتعيينه أمير أمراء الجزائر غير أنه لم يستمر طويلا في هذا المنصب حيث عينه السلطان قائدا للأسطول العثماني الذي استكمل إعادة بنائه خلال سنة ونصف " هذا الأسطول الذي تحطم في مالطة" إلا أنه تحطم ثانية في معركة التحالف البحري الأوربي في ليبانتو أو ليبانت في 27 أكتوبر 1571م.

- خلف علج على رأس ليبيا جعفر باشا الذي تميّز عهده بعدم الاستقرار وكثرة الاضطرابات حيث ثارت القبائل فعاملهم بشدة وأرهقهم بالضرائب فعمت الثورة مختلف المدن منها غريان عام 1575م ثم لحقتها طرابلس واتخذت قبائل بني الوليد مع يفرن وقررتا عدم دفع الضرائب المفروضة عليها وأمام هذه الأوضاع المتردية قرّر السلطان تعويضه برمضان باشا الذي عمل على تجاوز أخطاء سلفه حيث خفف الضرائب وأعفى الأهالي من الضرائب السابقة ووعدهم بمنع الجنود من التعدي ومحاسبة كل من يرتكب جريمة كما لاحق قطاع الطرق واللصوص وأقام نقاط مراقبة على مداخل المدينة ومخارجها.

كانت فترة رمضان باشا فترة حقد الإنكشارية على الولاة القادمين من اسطنبول وفترة ثورات على نطاق واسع أكثر من ذي قبل لأنه لم يكن بالرجل الحكيم الذي يحسن التصرف تجاه الأزمات فبدلا من استيعاب الثائرين واحتوائهم والتقرب إلى زعامة طرابلس وعلمائها حملهم مسؤولية تحريض القبائل فالقى القبض على بعض الزعماء

وأعدمهم الأمر الذي زاد من تقاوم الثورة بعد توحد القبائل في وجهه فحاول القضاء عليها في مارس 1584م.

3- وعمت البلاد الفوضى واشتد الصراع بين الجند إلى أن اختاروا من بينهم وال وطلبوا من السلطان تعيينه فاستجاب لهم وإن كان السكان رحبوا بادئ الأمر به إلا أن أحد زعماء تاجوراء يحي السويدي استطاع أن يجندهم ضده فحوصرت طرابلس حصارا شديدا اضطر معه السلطان لسحب مصطفى باشا وتعيين حسين باشا حاكما جديدا عام 1588م الذي باشر فور وصوله إلى الاتفاق مع زعيم قبيلة المحاميد ابن نويره ووعده بعوده دفعت ابن نويره للوقوف إلى جانبه ضد يحي السويدي والقضاء على هذا الأخير.

هذا وقد ظهرت في هذه الفترة كذلك قوة جديدة على الساحة العسكرية ظلت نصف قرن تقريبا تعاني الظلم والاضطهاد بسبب تحكم الإنكشارية بأمر البلاد وتكليفها أمر المحافظة على القلعة وحراسة الأسواق مقابل إعفائها من الضرائب والمحافظة على الأمن أثناء غياب الإنكشارية في مهمة خارجية.

وعلى العموم فإن المؤرخين يجمعون أن الفترة الممتدة ما بين 1595-1606م تعتبر فترة تمهيدية ساعدت ديوان الإنكشارية " الجند" على تجريد الوالي من أي سلطة فعلية وكان الوالي إبراهيم باشا الذي تولى الإدارة "السلطة" عام 1595م يتجنب إثارة الخلاف مع الديوان الذي يحظى بتأييد السلطان وولاء سكان الولاية فانصرف إلى جمع الثورة مقتنعا بما منح له من صلاحيات وحالما يتصرف بما لا يرضى الديوان يطلب منه مغادرة الولاية"

4- عين اسكندر باشا عام 1600م، واليا على ولاية ليبيا بصلاحيات محدودة لازمته حتى عزله سليم باشا عام 1606م الذي استسلم لرغبات الديوان، كما أن الأهالي قدروا للديوان معاملته الحسنة لهم وقدرة أعضائه على تصريف الأمور والاهتمام بشؤون الولاية، كما أبدى سكان الدواخل تقديرهم للإدارة الجديدة وتعهدوا التزام الهدوء ودفع ما عليهم من ضرائب في أوقاتها المحددة باستثناء سكان الجبل بزعمامة الداعية عبد الله الذين رفضوا دفع

الضرائب حيث تم تأديبهم وقتل 400 شخص منهم وإخضاعهم من طرف ابن نويره زعيم قبيلة المحاميد الذي كلفه الديوان بذلك.

ب- عهد الدايات 1606-1711م:

تولى الانكشاريون من خلال ديوانهم إدارة الولاية بعدما وضعوا نظاما وقواعد ضابطة وصارمة على الفائز بثقة الديوان الالتزام بها منعا من حدوث اضطراب أو شغب كما حددت مهمة الوالي المعين من أسطنبول، ونصت النظم التي وضعوها على انتخاب رئيس ديوان الجند لمدة ستة (06) أشهر ويلقب الفائز بثقة الديوان باسم الداى.

فاز سليمان وهو ضابط انكشاري يتأس ديوان الجند في عهد الدايات في ولاية ليبيا وبعد انتهاء مدة حكمه حاول الاستمرار بالسلطة إلا أنه أرغم على التنازل عن منصبه ومناشير المؤرخون بأن الديوان استمر بالسير على نهجه حتى سنة 1611م فترة متميزة سادها النظام وعلا فيها وتساوى الجميع أمام القانون، وضربت العناصر الفوضوية بدون أي رحمة ومنحت البحرية حرية التصرف وقدمت لها تسهيلات كثيرة ساعدتها على تحقيق نجاحها وتفوقها البحري، وأغرقت الأسواق بالبضائع المحلية والمستوردة، وتوافد الأوربيون على الولاية بشكل لم تشهد له مثيلا، وأقام الديوان مع أوجاق الجزائر وتونس علاقات جيدة ورحب بالعناصر العربية الأندلسية التي هُجرت من الأندلس سنة 1610م.

- و في عام 1611م فاز الداى صفر بثقة الديوان وانتخب رئيسا لديوان الجند وهو أول ضابط انكشاري يتوصل إلى رئاسة الديوان "الجند" من خلال نفوذه الاقتصادي، وقد تفرغ بعد تعيينه رسميا من الباب العالي على التخلص من مناوئيه وشجع الأعمال البحرية والصناعات وروض القبائل البدوية بحجة الأمن والاستقرار والنظام ضرب عناصر الإنكشارية ونفى ضباطها وكل هذه الأعمال حضيت بتأييد أعضاء الديوان وعلماء طرابلس وأعيانها، كما أنه أقام علاقات جيدة مع جيرانه.

- ولكن اهتمامه بجمع الأموال بالقوة من المدنيين والعسكريين وإعدامه لمعارضيه ثار عليه السكان والانكشارية وتوقف النشاط البحري.
- ورفعت شكاويهم إلى السلطان فأمر بتتحيه وتعيين حامد باشا واليا على ليبيا عام 1614 طالبا منه عدم استخدام القوة ضد الأهالي.

وما لبث أن نحي وعيّن سليمان باشا حاكما جديدا وقد عرف عنه الحكمة والعدل في إدارة شؤون الإيالة فخفض الضرائب، وفي عام 1619م عزل سليمان باشا وعين مكانه حسن باشا وفي هذه الأثناء كان ديوان الإنكشارية قد أنتخب مصطفى شريف رئيسا له إلا أن الديوان والوالي وخشية من غضب السلطان أرسل الأعيان ووجهاء الولاية رسائل إلى السلطان والصدر الأعظم يتوسلون قبول ما فعلوه استجاب لرغبتهم فأصدر فرمان تولية مصطفى باشا دايا على ليبيا هذا الأخير الذي أعاد الاستقرار للولاية غير أنه استبد بسكانها وعندما اشتكى السكان بظلمه وجبروته أمر بإعدامه عام 1630م وعيّن قاسم باشا خليفة له والذي تحالف مع الديوان من أجل الحفاظ على الاستقرار وفي عام 1633م تولى محمد باشا الصاقللي الولاية بفرمان رسمي ولم يخيب أمل السلطان حيث عرفت البلاد في عهده أمنا واستقرارًا وهدوءًا وازدهارا اقتصاديا وجهادا بحريا وقوة ضارية في المتوسط واستمرّ هذا الوضع في عهد من تولى الحكم من بعده عثمان الصاقللي 1649-1672، ولكن الوضع تغير بعد ذلك حيث عادت الاضطرابات والصراع على السلطة وتدهورت أوضاع البلاد لمدة فترة ضعف وفوضى تزيد عن الأربعين سنة أي إلى غاية قيام الأسرة القرمانلية.

ج- عهد الأسرة القرمانلية 1711-1835م:

على إثر تدهور الأوضاع بليبيا تمكن أحمد القرمانلي أحد قادة الجيش من الوصول إلى الحكم بمبايعة الشعب والعلماء له يوم 27 جوان 1711م.

- الأسرة القرمانلية: أسره تركية الأصل من مدينة قرمان الواقعة جنوب الأناضول في آسيا الصغرى، جاء الجد الأكبر أثناء قدوم سنان باشا لتحرير طرابلس الغرب من

فرسان القديس يوحنا عام 1551 وكان مصطفى باشا الجد الأكبر من جملة الجنود الذين أمر سنان بإبقائهم، فاستقر في منطقة المنشية، ومارس التجارة وتمكن من امتلاك مزارع وتزوج من فتاة طرابلسية الأصل واندمج مع أهالي المدينة:" للمزيد أنظر: ابن غليون- التذكار فيمن ملك طرابلس من الأخيار تحقيق الطاهر الزاوي ص 190 وانظر أيضا طرابلس الغرب تحت حكم الأسرة القرمانلية تأليف رودولفو ميكالي، ترجمة طه فوزي ص 11-12.

وبموافقة السلطان العثماني بعد تردد وجفاء تتلخص أهم الإصلاحات والأعمال التي قام بها أحمد القرمانلي في ليبيا بما يلي.

- تطهير الجيش من القادة والعناصر الذين ساهموا في اضطراب البلاد.
- تقوية الأسطول الليبي وتحسين المدن الساحلية.
- توحيد البلاد ونشر الأمن في ربوعها وتوسيع حدود إمارته على حساب جيرانه.
- تنظيم التجارة والاهتمام بطرق القوافل إلى أواسط إفريقيا.
- أقام مذبحا لرؤساء الإنكشارية في وليمة أعدها لهم مما جعل بعضهم يفر من الولاية طالبًا النجاة تاركين وراءهم ممتلكاتهم وأرزاقهم.
- القضاء على حركات العصيان والتمرد التي حدثت في تاجوراء وترهونة وقاد بنفسه حملة أعدها ضدّ مسلاته وتعتبر ثورة علي بن عبد الله الصنهاجي سنة 1715م من أكثر الثورات صعوبة لأن قائدها تستر بالدين فادعى أنه المهدي المنتظر.
- تنظيم أمور الولاية تنظيمًا جديدًا وتحسين أمورها ومنحها صفة شبه استقلالية
- اعتماده على أقربائه ومشاورته للعلماء والأعيان من تعميق نفوذه وتقوية مركزه فضمن لأبنائه من بعده حكم الولاية حكما وراثيا.
- ولكن خلفاؤه لم يحافظوا على هذا الأمن والاستقرار حيث ساءت أوضاع ليبيا في عهد ابنه محمد باشا الذي عرف بالضعف، ولما تولى على باشا السلطة 1767-

1796م قضى على الفتن وأعاد الهدوء للبلاد ولكن عوامل الضعف الاقتصادية وخاصة المجاعات التي ضربت المنطقة والنزاع بين العشائر البدوية وبين الكراغلة والحضر والأعراب وهجومات الأسطول الفرنسي عام 1785م هددت سلطته.

وأما فترة حكم أحمد باشا 1790-1796م كانت فترة استمرار لحكم أبيه علي باشا وبعد ذلك تولى السلطة يوسف باشا 1790-1832م إثر تمرده على أبيه علي باشا ثم على أخيه أحمد باشا وقد حقق الاستقرار والهدوء وشجع الجهاد البحري وعمل على تطوير البحرية ووطد علاقاته مع الدول المجاورة الدول الأوروبية غير أن علاقاته مع الولايات المتحدة الأمريكية ساءت مما أدى بهذه الأخيرة إلى فرض حصار على ليبيا عام 1801م، كما نراه واقفا إلى جانب نابليون ويرفض قطع علاقاته مع فرنسا عندما قامت بحملتها على مصر عام 1798م- كما شهد عهده اضطرابا ماليا بسبب إرغام الدول الأوروبية ليبيا على إطلاق سراح الأوربيين والتخلي عن القرصنة "الجهاد البحري" فزادت ديونه ولجأ لفرض الضرائب مما أدى إلى ثورة الأهالي في المنشية والساحل وبتشجيع من قناصل فرنسا وإنجلترا وأمريكا وحتى تونس واستمر الحال في عهد ابنه علي باشا 1832-1835م مما أسفر في النهاية عن غياب الحكم القرمانلي وعودة الحكم العثماني المباشر إلى ليبيا مباشرة ومما يجب الإشارة إليه كذلك أنه في أواخر العهد القرمانلي ظهرت الحركة السنوسية كحركة دينية سلفية إصلاحية وضع نواتها الأولى السيد محمد بن علي السنوسي 1797-1859 بعد أن أسس أول زاوية سنوسية في الجبل الأخضر عام 1840م وتضم الزاوية السنوسية الأقسام التالية، المدرسة الإسلامية- المسجد- ملجأ الخائف وعابر السبيل-مرشد الحاكم- المحكمة الإسلامية وقد اتسع عدد الزوايا ونشاطها في عهد ابنه المهدي حتى وصلت إلى تشاد وتمبكتو.

ومنذ أوائل القرن 20م دخلت الحركة السنوسية مرحلة الجهاد باعتباره فرضا مقدسا فلعبت بذلك دورا بارزا في الكفاح الشعبي الليبي ضد الاستعمار الحديث.

- العهد العثماني الثاني " أو عهد الولاية" 1835-1911م أو 1912م: (سقوط الجزائر عام 1830 - توغل محمد علي باشا في بلاد الشام)

استغلت الدولة العثمانية ضعف الأمراء القرمانيين المتأخرين وأقدام الديوان على إجبار يوسف باشا على التنازل عن الحكم لابنه علي باشا فأرسلت حملة عثمانية عسكرية بقيادة نجيب باشا قائد الأسطول إلى طرابلس في ماي 1835 تمكنت بعد وصولها من إلقاء القبض على علي باشا وإعلان ليبيا ولاية عثمانية تابعة للسلطان "محمود الثاني" مباشرة، وكان نجيب باشا أول داياتها.

و قد امتاز العهد العثماني الثاني الذي أمتدّ حتى الاحتلال الإيطالي لليبيا بالخصائص التالية.

أ- كثرة الولاية والسرعة في تبديلهم للحيلولة دون قيام الولاية بأية حركة استقلالية وقد قدر

ب- عدد ولاية هذا العهد ب33 واليا كانت مدة حكم الواحد من ثلاثين منهم نقل عن سنة واحدة.

ج- عرف عهد نجيب باشا 1835-1837م ثلاث ثورات كبرى تمكن من القضاء على الثائر عثمان أغا لكنه فشل في القضاء على ثورة غومه المحمودي في نفوسه وثورة عبد الجليل سيف النصر في سرت حيث ضلّا يتحكمان في منطقتيهما حتى عهد الوالي الثاني حسن باشا 1837 1838 ثم القضاء عليهما، وبذلك تفرغ الوالي محمد أمن باشا 1842-1847م - للإصلاحات الداخلية حيث قام بعدة تنظيمات إدارية وعمل على تحسين الخدمات والأوضاع الاقتصادية.

- عدم الاستقرار الذي تولد عن عدم الاستقرار الإداري لقصر عهود الولاية بحيث لم يكن يتوفر للوالي انجاز أي عمل أو تنظيم يرتئيه.

- اهتمت الدولة العثمانية كثيرا بتقوية ليبيا ومساعدتها خاصة بعد سقوط مصر في يد الاحتلال البريطاني عام 1881م وتونس في يد الاحتلال الفرنسي عام 1882م حيث حصّنت المواقع الليبية وموانئها وزادت في عدد أفراد الحامية العثمانية بها لكن أوضاع الدولة العثمانية الداخلية والخارجية جعلتها تتشغل نوعا ما عن ليبيا سهل

مرور الاستعمار لاطالي لها وفرض استدماره عليها بتآمر مع الدول الأوربية
الاستعمارية الأخرى.

الفتح العثماني لتونس 1574م

1- الصراع العثماني الإسباني على تونس:

شهدت سواحل بلاد المغرب الإسلامي مع بداية القرن 16م عدوانًا مسيحيًا صليبيًا إسبانيًا استهدف القضاء على استقلال تونس، ففي الوقت الذي لاقت فيه الهجومات الإسبانية مقاومة مستمرة في الجزائر بمساعدة العثمانيين فإنهم استطاعوا شراء ضمائر بعض الأمراء الحفصيين في تونس قبلوا التبعية للغزاة الإسبان مقابل الاحتفاظ بمناصبهم، وقد رأى خير الدين بربروس الذي أصبح حاكمًا على الجزائر من قبل السلطان العثماني "سليم الأول" أن التواجد الإسباني يمثل مبعث تهديد دائم للجزائر فشن حملة بحرية على تونس عام 1534م نجحت في تحرير العاصمة إلا أن سلطانها الحسن الحفصي الذي خسر عرشه التجأ إلى حلفائه الإسبان يطالبهم بالمساعدة ضد خير الدين، فلبى الإمبراطور شارلكان نداءه عام 1535م وقاد حملة عسكرية بحرية استطاعت أن تلحق هزائم بقوات خير الدين بربروس وتستولي على تونس، وعاد الحسن الحفصي إلى عرشه في ظل الحماية الإسبانية التي امتدت إلى مدينتي "صفاقص وسوسة" بيد أن خيانة "الحسن الحفصي فجرّت نقمة شعبية كادت تؤدي بحياته، فغادر البلاد مدحورًا ليفسح المجال لتدخل عثماني جديد قاده "درغوث باشا" ونجح في الاستيلاء على "قفصة" عام 1556م والقيروان قبلها عام 1552م، ثم حرّر تونس بكاملها عام 1569م.

وأمام هذا التفوق العثماني في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط تشكل تحالف صليبي أوروبي ضد الدولة العثمانية تمكن من هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانت أو ليبانتو باليونان عام 1551م ونال ذلك من قوة الأسطول العثماني وساعد إسبانيا على استعادة تونس مرة أخرى ولكن الهجوم العثماني المعاكس الذي قاده كل من سنان باشا وعلج علي وحيدر باشا ورمضان باشا في صائفة 1574م (بحر الوجود الإسباني في تونس وقضى على نفوذهم المستمر

خلف الحكم الحفصي نهائياً وضم تونس إلى الخلافة العثمانية كولاية تابعة لحكام الجزائر إلى حين.

وفي هذا المضمار يقول المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف في كتابه: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، ج 2-ط2-ص 30... لما استقرت قدمه بالحاضرة وتلافى ما بقي من رمقها وأعادها الله دار إسلام على يده وقلع أوتاد الدولة الحفصية من مراكزها، وصفاله جو الإستيلاء، شرع في سدّ ما نثلم من السياج، وترتيب الأمور وتألف الناس، فرتب قوانين يرجع إليها باعتبار الوقت والحال في الأمور الضرورية...".

2-مراحل الحكم العثماني بتونس:

-الإدارة العثمانية المباشرة من الجزائر مرحلة الباشوات " 1574-1590م .

يقول أحمد بن أبي الضياف في ذلك في المصدر السابق الذكر عن الأعمال التي قام بها سنان باشا بعد الفتح النهائي لتونس:

"... وأبقى داراً من الينجرية عددها أربعة آلاف مقاتل، أكثرهم اختار المقام بالحاضرة التي أنقذوها بأرواحهم، وأعيان من ذريتهم موجودون إلى الآن، رحمهم الله، وجعل على كل مائة منهم أميراً يسمى "الداي" لقب مشعر بالتعظيم في لغتهم وجعل "أمير لواء" لضبط أوطان المملكة واستخلاص جبايتها ويسمى "الباي" مرادف لأمير وهو رمضان بن حسين التركي من جند الجزائر، الذي أبقاه على باشا نائباً عنه، كما تقدم، وقيل هو من مسلمة الإفرنج أسلم صغيراً، وعلى كل حال فقد أسرع به حسبه ولم يؤخره نسبه وجعل قاضياً للعسكر اسمه حسين أفندي، وجعل نظر العسكر إلى الآغة بالديوان والتصرف في فصل القضايا إل القاضي .

وراء الجميع نظر الباشا وهو صاحي القيروان حيدر.. " ثم يردف بن أبي الضياف قائلاً وكأنه يرد على من اعتبروا الدولة العثمانية دولة جباية للضرائب قائلاً: "...و رتب أعياناً من أهل البلاد يحضرون في ديوان العسكر تألفاً لقلوبهم.."

ولم يرتب على المملكة شيئاً يرفع لخزائن الدولة العثمانية، كما هي عادة سلاطينها الذين أثارهم في الإسلام واضحة وتجارتهم من الله رابحة، وجنودهم في نصر الدين غادية، رائحة، فإنهم إذا فتحوا أرضاً كانت للإسلام، يقنعون بالطاعة، التي يكون مظهرها الدعاء لهم على المنابر ونقش اسم السلطان على الدينار والدرهم، ولا يطلبون فاضل الجباية، بل تصرف في مصالح محلها، كما هي الفتوى الشرعية...¹

وعلى العموم ومن خلال ما سبق يمكننا أن نقول أن الزعيم سنان باشا استحدث في تونس بعد تحريرها من النفوذ الإسباني نظاماً خاصاً بها بحيث اعتبرت منذ فتحها عام 1574م ولاية عثمانية تابعة بصورة مباشرة لحاكم الجزائر على أن يسيرها باسمه إدارياً حاكم مدني يحمل لقب "الباشا" بمساعدة الإطارات التالية:

أ- **الديوان العام:** ويضم كبار الضباط والأعيان، بالإضافة إلى الباي " مدير الشؤون المالية"

ب- **الأغا:** وهو قائد الفرقة العسكرية الانكشارية.

ج- **الدايات:** وهم مجموعة الضباط التابعين للأغا.

د- **القابودان:** قائد السلاح البحري

¹ أحمد بن أبي الضياف إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان . ج2، ط2/الدار التونسية للنشر ، تونس 1977م،

وقد استمر هذا النوع من الإدارة العثمانية المرتبطة بالجزائر وفي ذلك يقول المؤرخ التونسي أحمد بن أبي الضياف: ".. واستمرّ هذا الترتيب بتونس على حالتها المطمئنة إلى أن فتك الجند بكبار الديوان وتعرف بـ" واقعة البلكباشية .."¹.

وكان ذلك عام 1590م على حدّ قول ابن أبي الضياف بينما تشير مصادر أخرى إلى عام 1591م.

3- مرحلة الدايات " أو الإدارة العثمانية المباشرة من الأستانة" 1590 م:

بعد قيام الفرقة الإنكشارية بانقلابها الناجح في الجزائر ،وتسلمها السلطة ، تشجعت القوة الإنكشارية المرابطة في تونس على القيام بانقلاب عسكري مماثل عام 1590م ،وفرضت إثره أحد قادتها حاكمًا على تونس بلقب "الداي" وبذلك أنهت كل ارتباط إداري مع حكومة الجزائر ،وقد كان إبراهيم رودسلي أول من تسلم هذا المنصب، معلناً تبعيته المباشرة للخليفة العثماني في الأستانة ثم تولى من بعده "دايات عديدون إشتهر منهم عثمان داي الذي جاء في عهده إلى تونس عشرات الألوف من النازحين الأندلسيين فرحب بهم وأوأمهم وأقطعهم الأراضي ووزع على محتاجيهم الأموال فكانوا دماً جديداً بعث النشاط والحيوية العربية في القطر بما كانوا عليهم من ثقافة ومهارة فنية وصناعية وزراعية وتجارية وعمرانية .

وخلف عثمان داي يوسف داي عام 1019هـ ، فقد اهتم بالأسطول البحري فعلا شأنه وأخذ يرهب النصارى الإفرنج بجولاته حتى مات عام 1047هـ فخلفه الإسطة مراد زوقد كتب سجلا حافلاً في الجهاد البحري ضد الصليبيين حتى أنه جلب إلى تونس من جولة واحدة " إثني عشر ألف أسير إفرنجي ونحو تسع مئة مركب بين صغير وكبير "

نفسه. 1

وعلى العموم ما يمكن استنتاجه أن الحكم العثماني في البلاد التونسية كان يجري ويسير نحو حكم أشبه بالاستقلال الداخلي .

وكان يناط بقائد الجيش العثماني المرابط فيها" وكان يلقب هذا القائد بلقب الباي"

وهنا بعيد المؤرخون سبب ذلك إلى بعد المسافة بين مركز الخلافة وبين تونس.

وقلص الداوي الثالث السابق الذكر سلطة الوالي والديوان واعتمد على رئيس البحر وباي الأمحال" القوات البرية" وقاد باي الأمحال أمحاله "قواته"لجباية الأموال" وتأمين السبيل وهناء القبائل" ووضح الداوي ميزانا للبلاد" دستورًا أو قانونًا أساسيًا" وشجع الجهاد البحري وأنعش اقتصاد البلاد مما مكنها من استيعاب 80 ألف لاجئ أندلسي خلال فترة قصيرة.

وازداد نفوذ الباي في تونس حتى بدأ يطغى على الداوي ونال مراد باي الكورسيكي -1021- 1040هـ/1612-1631م مرسومًا عثمانيًا جعل المنصب وراثيًا في عائلته، وعمل مراد على تقليص سلطات الوالي والداوي والديوان.

وعليه يمكن أن نستنتج أن نظام الحكم في تونس أخذ يتطور وكان من صفات ذلك أن وجد منصب جديد عرف صاحبه "بالباي" كان يتولى قيادة الجيش والجبابة ويتمتع بسبب ذلك بسلطان نافذ وبذلك ظهرت الأسرة المرادية 1640-1702م إلى حيز الوجود التي أسسها مراد باي كما سبق الإشارة لذلك بعد إعتقاله لآخر الدايات وانتقاله إلى "قصر باردو" قصر الملوك الحفصيين وجعله مقرًا له ولمن جاء بعده من البايات ومن أشهرهم الثلاثة الأوائل "مراد باي، حمودة بن مراد، ومراد بن حمودة" الذين عملوا على تقوية الجيش، وتنظيمه وعلى تدعيم استقلالهم الذاتي عن الخلافة بتوثيق صلاتهم بفرنسا عن طريق معاهدات تجارية اتخذتها فرنسا عند فرض حمايتها على تونس دليلاً على عدم أحقية الدولة العثمانية في التدخل، وبعد مراد بن

حمودة نشبت فتنة بين أولاده فتدخل الجزائريون¹، وأخيراً أنهى الباي إبراهيم الشريف "داي" عهد المراديين عام 1702م واستيلائه على الحكم في تونس معيداً بذلك إليها حكم الدايات الذي تم القضاء عليه بعد ثلاث سنوات نتيجة التدخل الجزائري في تونس الذي أدى إلى أسر إبراهيم الشريف وانتقال السلطة إلى البايات الحسينيين.

-4- الأسرة الحسينية 1705-1957م:

انتخب العلماء وكبراء الجند والأعيان يوم 10 جويلية 1705 م آغا الجند حسين بن علي بن تركي باياً على تونس بعد وقوع إبراهيم الشريف بالأسر "هكذا بدأ حسين ولاية لم يطلبها ولاسفك لغرضه دماء المسلمين في طلبها"

ونجح الباي حسين البالغ من العمر سبعاً وثلاثين عاماً في إخراج الجزائريين من البلاد والقضاء على محاولة الداوي محمد الأصفر الانقلابية والحصول على مرسوم عثمانى يجعل المنصب وراثياً في عائلته، ويعتبر الحسين بن علي رأس الأسرة الملكية التي عرفت بالأسرة الحسينية نسبة إليه والتي استمر الحكم فيها إلى سنة 1375هـ-1957م، وحكم تسعة عشر (19) باياً من أفراد الأسرة أو العائلة الحسينية لمدة قرنين ونصف القرن "حتى يوم 25 جويلية 1957م"

غير أن الصراع على السلطة بين أبناء هذه الأسرة بدأ يظهر منذ عهد مؤسسها حيث قتله ابن أخيه وهو "علي باشا" الذي امتاز عهده بالاستقرار ومحاولة التحرر من قيود المعاهدات المبرمة بين أسلافه والدول الأوروبية، ولكن محمداً بن الحسين أراد استعادة السلطة إلى عرش أبيه عام 1756م لقاء جزية سنوية ظلّ بايات تونس يؤدونها لخزانة الجزائر حتى سنة 1806م

¹ والظاهر تاريخياً أن الربع قرن التالي "1675-1702م" بالبلاد التونسية ومن عمر الأسرة المرادية شهد أحداثاً من الاضطرابات بين أبناء هذه الأسرة بلغت بها إلى حدّ الحرب الأهلية مما جعل الجزائر تتدخل في تونس بعدة حملات باسم وضع نهاية لهذه الحرب فضلاً عن عودة الباب العالي للتدخل المباشر في الشؤون التونسية "أنظر إبراهيم شحاته حسن أطوار العلاقات المغربية العثمانية" قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون 1510-1947م "منشأة المغارف بالإسكندرية مصر، 1981، ص 422.

ولم يدم عهد الباي محمد سوى ثلاث سنوات توفي بعدها فخلفه على العرش أخوه "علي" الذي أورث العرش ولده "حمودة" 1782م -1814م الذي يعتبر من أبرز الشخصيات في الأسرة الحسينية وقد استمد شهرته من خلال المواقف التالية¹:

- أ- نجاحه في القضاء على تمرد الإنكشارية.
- ب- إنتهاجه سياسة خارجية متوازنة قائمة على أساس الانفتاح نحو العالم الأوربي ولاسيما فرنسا، مع توثيق الصلات بالدولة العثمانية في نفس الوقت².
- ت- نجاحه في صدّ الغارات البحرية التي قامت بها جمهورية البندقية على تونس.
- ث- إعتماذ على جهاز إداري وطني في تسير شؤون البلاد
- ج- غير أن مشاريعه الإصلاحية التي تبناها خلفاؤه من بعده إنطلقت من مرتكزات خاطئة هي اعتمادها الكلي على رؤوس الأموال الأجنبية وهذا ما قاد البلاد إلى أزمة مالية أوقعت تونس في شباك الحماية الفرنسية في صائفة عام 1881م
- ح- "ومما يلاحظ كذلك أن حكام هذه الأسرة أخذوا يوطدون علاقاتهم بالدول الأوربية تأكيداً لاستقلالهم الذاتي عن الباب العالي" وقد عانت تونس في عهد هذه الأسرة من تدخلات الجزائر كما عانت طرابلس من تدخلات تونس.

5- أشهر البايات الحسينيين وأهم إنجازاتهم :

ولقد وهنت صلة الدولة العثمانية بالقطر التونسي في عهد هذه الأسرة كثيراً حتى لم يبق منها إلا الخطبة لسلطانها " الخليفة" وتولى العرش منها أمراء كثيرون وعديدون كان منهم الكثيرون اتصفوا بالهمة والحيوية والنزعة الإصلاحية والعمرائية والتنظيمية فأنشئوا كثيراً من المنشآت وسنوا

1_ للاطلاع أكثر عن الموضوع راجع الإمام، رشاد، سياسة حمودة باشا الحسيني بتونس "1782-1814م" المجلة التاريخية المغربية عدد 6

جويلية /يوليو 1976م تونس من ص 111 إلى ص 120.

كثيرا من القوانين وشجعوا الحركة الاقتصادية وأسسوا المدارس وقوا الجيش والأسطول حتى غدت دولتهم "تونس" في وقت ما من الدول القوية في البحر المتوسط.

وهذه الأسرة وإن كانت تمت إلى العنصر " الأرنأووطى " التركي فإنها مع جمهور الأسر التركية التي يتألف من رجالها الجيش العثماني الأول الذي حرّر القطر التونسي من الاستعمار الإسباني نهائياً عام 1574م قد إندمجت في العروبة التي غدا طابعها هو الطابع الشامل لهذا القطر اندماجاً تاماً.

ومن الذين سجلوا أعمالاً عمرانية إصلاحية وتنظيمية وعلمية من هؤلاء البايات أكثر من غيرهم أولهم حسين وعلي وحمودة ومحمود وحسين الثاني وأحمد المشير ومحمدالثاني "1855-1859م ومحمد الصادق " 1859-1882م " .

فقد أحيا أولهم الحسين بن علي معالم مدينة القيروان وأنشأ مدارس عديدة في تونس وسوسة والقيروان وصفاقص ونفطة وأقام عدداً من الجسور وصهاريج لجمع الماء وشجع التجارة والصناعة والزراعة .

وكان ثانيهم "علي باشا بن أخ الحسين بن علي" شغوفاً بالعلم والأدب مكرماً للعملاء والأدباء وقد أنشأ عدداً من الملاجئ والمدارس وأوقف عليها الأوقاف الدارة.

وشجع ثالثهم "حمودة باشا" الصناعة الوطنية وكان يتشدد في نشر استعمال المصنوعات الوطنية لباساً وفراداً واتسعت النهضة التعليمية في عهد رابعهم "محمود بن حمودة" كما كثرت المساجد والزوايا والتكايا التي كانت مأوى للعاجزين.

ونظرهم خامسهم "حسين الثاني " الجيش على الطرق الفنية الحديثة وأبطل سادسهم " أحمد المشير أو أحمد باي 1837-1855م"الرق وأقفل أسواقه تحت الضغط الأوربي، كما أطلق حرية العبادة لليهود تحت نفس الضغط كما طور أجهزة الحكم والإدارة (الوزارة، الولايات القضاء) وفي نفس

الوقت اعتنى بمؤسسات التعليم ورعاية مؤسسات الثقافة العربية الإسلامية وخاصة جامع الزيتونة. وأنشأ مدينة جديدة اسمها "المحمدية" واتخذها مقرًا له وهي تبعد "14 ميلًا عن تونس" وكان البايات قبله يسكنون في مكان آخر لتونس اسمه "باردو" سبق الإشارة إليه" ونظم الجيش مجددًا على الطرق الحديثة وزاد في عهده حتى بلغ ثلاثين ألفًا "30 ألفًا" وأنشأ مدرسة حربية جلب إليها المعلمين الضباط والمدربين من أوروبا "وقوى الأسطول وضمّ إليه " 12 إثني عشرة باخرة منها باخرة من الطراز الأول وأحدث مرسى حربيًا في غار الملح أنفق عليه الأموال الطائلة وأنشأ دارًا لصناعة أو لبناء السفن في ثغر حلق الوادي كما أنشأ فيه معامل لصنع السلاح وإصلاحه، ومستودعات شحنها بالذخائر وآلات الدفاع وشراء سفن بخارية حربية .

وربما كان هذا "كما يشير إلى ذلك الكثير من المؤرخين منهم أحمد بن أبي الضياف في مصدره السابق الذكر" من أعظم البايات مآثر ونشاطًا، وإن كان قد أنهك خزائنه".

وأما سابغهم "محمد بن أحمد أو محمد الثاني 1855، 1859م:

فيقول الكثير من المؤرخين أن أحمد باي هذا تطلع إلى بناء دولة عصرية متأثرًا بما رآه في فرنسا خلال زيارته لها سنة 1846م من مظاهر الحضارة الحديثة، زد على ذلك أن البايات الحسينيين عاصروا في بداية القرن 19م محاولات إصلاحية قام بها السلطان "محمود الثاني في الدولة العثمانية" و"محمد علي" في مصر بهدف تطوير الدولة وإقامتها على أسس الحضارة الحديثة، وبناء على ذلك أراد بعض أولئك البايات سلوك نفس الطريق وخاصة بعد احتكاكهم بالدول الأوروبية نتيجة للاتفاقيات التجارية التي عقدتها تونس معها.

وعليه فقد منح شعبه دستورًا نص على المساواة بين الناس في الحقوق وسماه "عهد الأمان" وقد تلي هذا الدستور بحضور نواب الدول الأوروبية وكبراء الموظفين والأعيان يوم 20 محرم 1274هـ/10 سبتمبر 1857م وأقسم في الحفل على إجراء العمل بمقتضاه واستبشر الناس بصدوره خيرًا وكان ذلك تحت ضغط القناصل الأوروبيين، ولكن هذا الدستور في حقيقة أمره نلاحظ

أن معظم موارده صيغت لترسيخ النفوذ الأوربي بتونس حيث نص على حق الأوربيين الكامل في المواطنة والمساواة ومنحهم امتيازات اقتصادية واسعة بدون قيود.

ويدل على وجود ضغط أوربي وراء إصدار هذا "العهد" رسو الأسطول الفرنسي في ميناء "حلق الواد" وقتما كان الباي يتلوه أمام ممثلي الدول الأوربية واطلاع نابليون الثالث عليه قبل الإعلان عنه.

وقد أنشأ مجلساً بلدياً على النظم الأوربية ليتولى تنظيم تونس وإصلاحها وهو أول من أدخل إلى تونس الطباعة الحرفية المعدنية وكانت الطباعة قبل ذلك حجرية، وجرّ المياه في الأنابيب إلى تونس العاصمة في حين كانت أموال الخزينة تنفق بإسراف على بذخ أسرته وحاشيته كما أشار إلى ذلك بعض المؤرخين.

وسار ثامنهم "محمد الصادق" في 1859-1882 في تطبيق عهد الأمان فأنشأ مجلساً منتخبا مؤلفاً "60" ستين عضواً للنظر في مصالح البلاد وسن قانوناً يضمن حقوق الفلاحين، ووضع منهجاً خاصاً لتوزيع الأراضي الأميرية على سكان البادية وأصلح مناهج التعليم، وأسس المدرسة التي عرفت باسمه "الصادقية" للعلوم واللغات وأرسل خبراء أجانب وسمح لرؤوس الأموال الأجنبية بسبيل العمل على استثمار ثروات البلاد المعدنية والزراعية والصناعية كما وطد علاقات تونس مع فرنسا وهو كسلفة متحمس للتجديد والإصلاح غير أنه كان يعتمد في تنفيذ مشاريعه على الإستدانة من الدول الأجنبية بينما كان الأول يعتمد في ذلك على إرهاب الشعب بالضرائب، وقد استخدمت فرنسا تلك الديون جسراً للتدخل في شؤون تونس الداخلية وتسيير جهازها الحاكم.

ومن إصلاحاته كذلك إستبدال "عهد الأمان" بوثيقة "دستورية" في عام 1891 وأهم ما نصت عليه:

الحريات الشخصية، والمساواة أمام القانون، وعلى تشكيل مجلس استشاري مختلط (أوربي، تونسي) بجوار المجلس الكبير المؤلف من أعضاء المجلس الشرعي وأهل الرأي، والمجلس الكبير، قانونيًا، هو السلطة العليا التي يخضع لها حتى الحكام، أما موقف هذا الدستور من الامتيازات الأجنبية فقد أكدها، إذ منح الأوربيين حق امتلاك العقارات والمزارع في كل أنحاء تونس، كما نص على عدم أحقية الدولة التونسية في احتكار موادها.

ولقد أخذت فرنسا تتربص بتونس وتطمع في الاستيلاء عليها بعد أن استولت على الجزائر، وتهيئ الأسباب لتحقيق هذا المطمع وقد شجعت بعض البايات على الاستقراض من فرنسا قوافي هذا التيار بحجة المشاريع العمرانية حتى عظمت ديون الدولة وارتبكت حالتها المالية ضمانه الديون.

وقد فرض الباي محمد الصادق بعض الضرائب لتفادي العجز فأدى ذلك إلى هياج الشعب وأخذ قناصل الدول الطامعة وخاصة فرنسا وإيطاليا يتصارعون ويتشادون على السيطرة من أجل الاستيلاء على تونس.

وفي هذه الأثناء اجتاحت بعض القبائل التونسية حدود الجزائر فرأت فرنسا في هذا الحادث فرصتها المنشودة فسيرت حملة من الجزائر بحجة التتكيل بالمعتدين وضبط الأمن بالبلاد في عام 1881م-1298م. وتقدمت الحملة إلى أن بلغت "قصر باردو" مقر الباي محمد الصادق وأرغمه قائدها على توقيع المعاهدة المشؤومة التي عرفت "بمعاهدة باردو" والتي وافق فيها الباي مرغماً على احتلال القوات الفرنسية الأماكن التي ترى احتلالها ضرورياً، وتمثيل المملكة التونسية، وحماية مصالحها ورعاياها في البلاد الأجنبية بواسطة الممثلين الفرنسيين، وعدم إبرام أي عقد ذي صيغة دولية مع أي دولة دون علم فرنسا وموافقتها، وتمثيل فرنسا لديه بوزير مقيم عام تكون وظيفته الإشراف على تنفيذ أحكام المعاهدة ويكون هو الواسطة بين الدولة الفرنسية والسلطات التونسية ومنع إدخال السلاح والذخائر الحربية لمراسي المملكة التونسية.

هكذا وفي الأخير يمكننا أن نقول :أنه بالرغم من وجود بعض النتائج الإيجابية للمشاريع الإصلاحية التي قام بها البايات الحسينيون فإن النتائج السلبية لها كانت أكثر وضوحًا وسببًا لتغلغل النفوذ الأجنبي وتحوله في النهاية إلى احتلال "سمي حماية".

المصادر والمراجع المعتمد عليها:

- 1- أبو خلدون ساطع الحصري: البلاد العربية والدولة العثمانية دار العلم للملايين بيروت لبنان، 1965م.
- 2- أحمد الطويلي في الإصلاح والحنين إلى الأوطان، دار أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع ، تونس، 1984 ، ص 27 وما بعدها.
- 3- احمد بن أبي الضياف: إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان الجزء "2" الطبعة الثانية الدار التونسية للنشر، تونس 1977م .
- 4- برو توفيق علي_ العرب والأترك دار العلم للملايين، بيروت، لبنان 1975م .
- 5- خير الدين التونسي: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك الشركة التونسية للنشر، تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986م.
- 6- زاهية قدورة تاريخ العرب الحديث دار العلم للملايين 1978
- 7- عبد الكريم محمود غرابية ، تاريخ العرب الحديث. الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت لبنان 1984، ص 153 وما بعدها.
- 8_ عطاء الله شوقي المغرب العربي الكبير في العصر الحديث "ليبيا، تونس الجزائر المغرب ، دار الغرب الإسلامي،بيروت لبنان 1995م.
- 9_ محمد عزة دروزة: العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي من القرن :3هـ إلى القرن 14هـ، المجلد:3، الطبعة الثانية الجزء الثامن، منشورات المكتبة والمطبعة العصرية في صيد لبنان 1401هـ -1981م ، ص 185 وما بعدها .
- 10_ محمد بن محمد الأندلسي الوزير السراج تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة_الجزء الثاني_القسم الأول ،دار الكتب الشرقية ،تونس 1973م.

الدولة السعدية في المغرب الأقصى

1- نظرة تاريخية عن الدولة السعدية:

قامت هذه الدولة في المغرب الأقصى وينسب ملوكها أنفسهم إلى النفس الزكية من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب ويقولون أن جدهم المولى زيدان بن أحمد كان يقيم في ينبع النخل في طريق المدينة المنورة فاتصل به أهل درعه في السوس واستدعوه للحصول على بركته في صلاح ثمارهم التي كان يعتريها العطب حسب تقليد كان جاريا في بلاد المغرب، فجاء واستقر في درعة دون تعيين زمن لقدمه.

• ويزعم السعديون أنهم بنو عم الأشراف العلويين أصحاب سجماسة إذ يجتمعون معهم في محمد بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن.

• وهناك من يطعن في نسبهم وينسبهم إلى بني سعد بن بكر القبيلة التي رضع فيها النبي ويقول أن نسبتهم السعدية أتت من ذلك. غير أن المشهور صحة نسبهم الأول " أنظر الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي ج3، ص2، 3.

• وظل أسلاف السعديين مقيمين في مدينة درعة بإقليم السوس قيل منذ أوائل القرن 7 هـ 13 م إلى أن ظهر منهم أبو عبد الله محمد القائم بأمر الله مؤسس دولتهم وأول سلاطينهم في القرن 10 هـ أوائل 16 م، في الوقت الذي كان فيه البرتغاليون منذ القرن 9 هـ قد استطاعوا الاستيلاء على ثغور هذه المنطقة ولم يستطع الوطاسيون الذين تولوا الحكم بعد المرينيين أن يقفوا في وجههم . فتوجه أعيان هذه المنطقة إلى أبي عبد الله الذي كان ذا مكانة وبرز وباعوه سنة 915 هـ، وتعهدوا له بالنصرة والتأييد فقبل وتلقب بلقب القائم بأمر الله وأخذ يحشد فيهم وقد أخذ من جهة أخرى يفرض سيطرته على أجزاء من الدولة الوطاسية كتار

ودانت تم زحف على أكادير لمقابلة البرتغاليين ولكنه لم ينجح في اقتحام المدينة، وظل يجاهد إلى أن وافته المنية عام 923 هـ 1517 م.

نال محمد القائم بأمر الله بفضل تزعمه لتلك الحرب التحريرية اعتراف الدولة الوطاسية به كحاكم شرعي علي إقليم السوس "

2- الصراع السعدي الوطاسي وقيام الدولة السعدية:

بعد وفاه القائم بأمر الله السعدي عام 1517 م انتقل حكم إقليم السوس إلى ابنه أبو العباس أحمد الأعرج ومحمد الصغير اللذين واصلوا الجهاد ضد البرتغاليين حتى نجحوا في إجلائهم عن أسفي وأزمور بين عامي 1541-1539 م هذا وقد أمتد سلطان الأشراف السعديين في عهدهما حتى وصل مراكش سنة 932 هـ 1525 م واستولوا على مراكش واستقروا فيها وتسمى أحمد الأعرج بالأمير. وأمام هذا الانتصار قام السلطان الوطاسي أبو عبد الله بمحاصرة مراكش ولكنه لم يطل البقاء لاضطراره للعودة إلى فاس بعد أن بلغته الأنباء بقيام عمه عليه في فاس ونبذ طاعته.

وفي عام 935 هـ 1528 وقعت بين أبي العباس الأعرج السعدي صاحب مراكش وأبي العباس أحمد بن محمد الوطاسي ولكن السلطان الوطاسي اضطر إلى عقد معاهدة للصلح بينه وبين الأمير السعدي بسبب حدوث ثورة بين رجال جيشه. وعقد بينهما الصلح على أساس تقسيم البلاد على أن يكون للأشراف السعديين من تادالا إلى السوس ولبنو وطاس من تادالا إلى المغرب الأوسط.

• وحدثت واقعة ثانية بين الوطاسيين والسعديين وتعرف بواقعة أبي عقبة في وادي العبيد سنة 942 هـ 1535 م، وذلك عندما اتسع نطاق الدولة السعدية وجارت على أملاك بني وطاس وانهزم الوطاسيين عام 943 هـ 1536 م.

3- محمد الشيخ أول ملوك السعديين:

انتقلت رئاسة السعديين إلى السلطان محمد الأصغر السعدي الذي تغلب على أخيه أبي العباس الأعرج واستولى على مراكش عام 946 هـ 1539 م وقبل 1540 م وعرف بمحمد الشيخ أما أخوه أبو العباس الأعوج فقد سجن في مراكش. وأهم ما تميز به عهد محمد الشيخ هو الجهاد ضد البرتغاليين حيث نجح في تحرير حصن فانتني وآسفي وآزمور واختط مرسى أكادير بالسوس الأقصى عام 947 هـ 1541 م.

كما استولى السلطان محمد الشيخ في المغرب الشمالي على مكناسة الزيتون عام 955 هـ 1548 م، وبعد ذلك بدأ يوسع دولته على حساب أملاك بني وطاس بعد أن نكث ما كان بينه وبينهم من عهود الصلح حيث حاصر فاس واستولى عليها عام 956 هـ 1549 م معلنا نفسه سلطانا على كامل البلاد باسم محمد المهدي وقد عزز مكانته لدى الشعب بإحراز انتصارات جديدة على البرتغاليين أدت إلى طردهم من أصيلا والقصر وحصر تواجدهم في طنجة وسبتة وميلة وبذلك يعتبر المهدي المؤسس الحقيقي للدولة السعدية وهنا أرسل له السلطان العثماني رسولا يطلب منه اي يطلب من " السلطان محمد الشيخ " أن يذكر اسمه أي أسم السلطان في خطبة الجمعة فرفض. واكتسب بذلك عداة العثمانيين له فتحالف مع الوطاسيين.

• فلما سقطت فاس عام 956 هـ 1549 م فرّ أبو حسن الوطاسي قائد جيش الوطاسيين إلى الجزائر العثمانية مستنجدا بها على السعديين.

• رحب حاكم الجزائر علق على بابي حسون وأعادته على رأس جيش كبير من العثمانيين والمغاربة واقتحم أبو حسون فاس وتغلب على السعديين بالقرب من تازة ففرّ محمد الشيخ السعدي عن فاس ودخلها أبو حسون عام 961 هـ 1554 م، ولما تراجع محمد الشيخ بعد هزيمة فاس وصل إلى مراكش واستجمع قواه نهض بجيشه إلى فاس وهزم أباحسون وأخذه أسيرا وقتله واستولى على فاس عام 961 هـ 1554 م.

- وبمقتل السلطان أبي حسون انقضت بل زالت دولة بني وطاس وأصبح السلطان السعدي صاحب الأمر المطلق في المغرب الأقصى.
- تلقب محمد الشيخ السعدي بالخلافة، بعد افتتاحه فاس ولكنه لم يتخذها عاصمة له وأثر مدينة مراكش لهذا الغرض.
- لم ينس محمد الشيخ ما أصابه على أيدي العثمانيين فتحالف مع الإسبان في وهران واتفق معهم على مهاجمة العثمانيين في الجزائر ولكن حكام هذه الأخير سارعوا لمحاصرة وهران وحالوا بين الإسبان وبين السعديين وعمد حكام الجزائر بعد ذلك إلى القضاء على محمد الشيخ وتم لهم في جبال الأطلس وحملوا رأسه إلى إسطنبول سنة 956 هـ/1557م

الغالب بالله:

- خلف محمد الشيخ ابنه مولاي أبو محمد عبد الله الغالب بالله 1574-1557 " م فسار على سياسية أبيه في معاداته للعثمانيين وتعاون مع الإسبان وتنازل لهم عن ثغر بادس عام 972 هـ 1565م، وفي عهده حاول حسن بن خير الدين بايلرباي الجزائر أن يستولى على فاس عام 965 هـ/1557م ولكنه هزم في موقعه اللين بالقرب من فاس.
- وفي عام 969 هـ 1561م /م افتتح شفشاون وحاصر البريجة من مدن المغرب التابعة للبرتغاليين عام 1562 ولكنه لم ينجح في فتحها، ومات الغالب بالله بعد مرض أصيب به عام 982 هـ 1574م.

المتوكل وعبد الملك:

- خلف الغالب بالله ابنه محمد المتوكل .وكان عماء عبد الملك وأحمد اللذان خرجا على طاعة أبيه انضما إلى العثمانيين وحاولا الاستيلاء على المغرب، فخرجوا عام 984 هـ 1576م على رأس جيش ضخم للاستيلاء على المغرب الأقصى واضطر محمد المتوكل إلى الانسحاب نحو جنوب

المغرب الأقصى بعد أن خذله فريق من جيشه ففر المتوكل إلى ملك إسبانيا ولكنه لم يساعده فتوجه إلى ملك البرتغال.

معركة وادي المخازن 4 أغسطس 1578م:

تولى عبد الملك السلطان وكان قد اكتسب خبرات كثيرة بسبب التجائه إلى اسطنبول في خدمة السلطان مراد "3 كان يجيد الاسبانية والإيطالية" فتصادق مع فليب الثاني ملك إسبانيا وتفاوض مع فرنسا وانجلترا " أما البرتغال على عهد جان 1557-1521-3 م كانت تهتم بشؤون البرازيل ومستعمراتها في أمريكا الجنوبية ولم تهتم بشؤون المغرب"

• فلما تولى الدون سبستيان عرش البرتغال عام 1557 م، عمد إلى غزو المغرب الأقصى مدفوعا في ذلك بدافع ديني، فأعد جيشا يتألف من 25 ألف مقاتل جلهم من البرتغاليين والباقون من الإسبان والألمان والإيطاليين وبعض المغاربة من أنصار المتوكل، ونزل الجيش دون مقاومة في طنجة وشنّ الغارة على سواحل المغرب الشمالية " تطوان والعرائش " وتقدم الجيش نحو القصر الكبير، فتصدى له جيش عبد الملك " بمشاركة الأندلسيين والعثمانيين "... وكان يفوق الجيش البرتغالي في العدد إذا كان يتألف من 52 ألف مقاتل جلهم من الفرسان، واشتبك الفريقان في وادي المخازن يوم 4 أغسطس 1578 م، وانتهى الأمر بهزيمة جيش البرتغال وموت ملكه الدون سبستيان وحليفه المتوكل غرقا في نفس الوقت الذي مات فيه عبد الملك لعله أصابته وهو على محفته فسميت هذه المعركة بمعركة الملوك الثلاثة.

كما عرفت كذلك عبر التاريخ بمعركة وادي المخازن، وفي هذه المعركة كذلك قضى الجيش المغربي على معظم الجيش البرتغالي وأسر عددا كبيرا منهم وبذلك تم القضاء على التحالف الصليبي الذي قاده الإمبراطور البرتغالي "لأن الكثير من المؤرخين يرون في هذه

المعركة فصلا من فصول الحروب الصليبية المعلنة من طرف الغرب على بلاد المغرب لإسلامي وامتدادا للحروب الصليبية التي شنها على بلاد المشرق الإسلامي .

أما العرش السعدي الذي كان محورا لهذا الصراع فقد انتهى إلى شقيق عبد الملك " أحمد " الذي تسلم الحكم باسم " المنصور "

نتائج المعركة:

- أصبح المغرب متماسكا من الداخل وأكثر وحدة.
- انهيار قوة البرتغال وانضمامه تحت لواء فليب الثاني الإسباني وفقدان سيطرته على بعض المستعمرات.
- لقد استخلص المغرب أموالا طائلة من جراء فداء الأسرى وسمح له بشن حملات عسكرية لاسيما تلك التي قام بها أحمد المنصور نحو السودان.
- كانت تمثل ضعف البرتغاليين وتلاشي قوتهم مما ساعد على تصفية الجيوب التي كانوا يحتلونها على سواحل المغرب كما كان انهزام البرتغال وضع حد لطموحاتهم في سواحل المغرب.
- تدعم حكم السعديين واكتسبوا تأييد العامة والزوايا والفقهاء بحكمهم، كما تعززت مكانتهم الدولية وأصبحوا محلّ احترام من كافة المسلمين.
- تدفق الأموال على المغرب من جراء أهداء الأسرى المسيحيين فتحول الناس بعد أن خفت عليهم الضرائب بالعمل والإنتاج مما سمح بجلب الرخاء للمغرب والثروة حتى أن أبا العباس لقب بالمنصور الذهبي لكثرة ثروات المغرب من الذهب وودائعه.

• سمحت للمغرب من استعادة وحدته والقضاء على المنافسات الداخلية لفترة طويلة مما سمح لأحمد المنصور الذهبي أن يتفرغ لتحقيق مشاريعه في السودان وعقد صلاته التجارية مع الدول الأوروبية.

أبو العباس احمد المنصور الذهبي 1603-1578 م:

بويح بفاس غداة معركة وادي المخازن ويمثل عهده الذي استمر 26 سنة دور العظمة في تاريخ الدولة السعدية الذي تميّز خاصة بالتنظيمات والإصلاحات التي ادخلها المنصور على نظام الدولة والأعمال العسكرية والعلاقات الدبلوماسية التي أصبحت على الدولة المهابة والعظمة والقوة والتجديد والعصر الذهبي في تاريخ الدولة السعدية بعد عهد ملئ بالدسائس والمؤامرات والارتقاء في أحضان الأعداء طمعا في الوصول إلى السلطة.

سياسية احمد المنصور الداخلية:

استغل المنصور الانتصار الساحق الذي حققه في معركة وادي المخازن في كسب محبة شعبه وفي الحصول على أكبر قدر من الغنائم التي خلفها جيش البرتغال المغلوب، كذلك اثرى المنصور ثراء " فاحشا بسبب افتداء الأسرى النبلاء بحيث لقب منذ ذلك الحين بالذهبي، وتسابقت دول أوروبا في خطب مودة هذا البطل الذي استطاع أن يقهر دولة البرتغال المستعمرة، وقدمت السفارات إلى مراكش حاضرة السعديين التي ازدهرت في عهده ازدهارا لم تشهده منذ عهد بعيد فتألفت الفنون والآداب وتقدمت العلوم المختلفة كما أنه اعتمد التنظيم الإداري الذي اختطه على نظام المخزن الذي يتخلص باشتراك قبائل معينة تتوزع في مناطق محدّدة في إدارة البلاد بحيث يتوجب على قبائل المخزن مقابل إعفائها من الضرائب تعبئه صفوفها وإعلان الجهاد أثناء تعرض البلاد لعدوان خارجي أو فتنة داخلية كما تكلف من ناحية ثانية بجباية الضرائب من القبائل الأخرى ولكون أن المنصور كان مستثيرا بطبعه نراه يتزعم نهضة علمية شملت المغرب الأقصى في ذلك العهد.

كما اهتم بصفة خاصة بالتجارة واتبع سياسة تقوم على الحزم والعزم في إدارة شؤون دولته عاونه وساعده في ذلك مؤرخة وكتابه القشتالي .وزين المنصور عاصمته "مراكش" بأروع الأبنية التي أعادت ذكرى منصور الموحدين واستحضر لعمارة قصوره عمالا وصناعا من سائر البلاد " حتى من بلاد الإفرنجة) : أوربا (وجلب الرخام من إيطاليا كما بنى " المنصور "قصره المعروف بالبديع داخل قصبة السعديين عام986 هـ 1578 م/ ومن منشآته كذلك المعقلان اللذان أنشأهما بفاس، أحدهما خارج باب العجسية والآخر قبالة باب الفتوح كذلك بنى حصنين بلغز بثغر العرائش.

كما أنه نظم جيشه على غرار الجيش العثماني الذي كان معجبا به) فقد اصطفى من الأتراك موالى رباهم بنعمته .*(وقسم الجيش إلى أقسام عديدة من جملتها كتيبة خاصة من الشباب الأندلسيين النازحين وبذلك صار له جيش قوي تنظيما وتجهيزا واهتمام.

• ومما أنشأه معاصر للسكر في أماكن عديدة فكثرت السكر في عهده حتى لم تكف تكون له قيمة، وكان يبادل عليه من اسبانيا بالرخام.

• كان حازما يقضا مشاورا في مهمات الأمور، وقد أنشأ ديوانا للشورى يجتمع فيه كل يوم أربعاء وجوه الدولة فيتداولون فيما ينوب من جلائل الأمور .وكان متطلعا لأخبار النواحي بحثا عنها غير مترخ في قرأه رسائل الأطراف مسارعا في الإجابة عليها، وكان مشاركا في العلوم . وقد اتصل بالمراسلة بعلماء مصر الكبار واستجازهم، وممن أجازته العلامة أبو عبد الله محمد بن يحيى القرافي.

ومما أورده السلوي في سياق سيرة المنصور " ج -3 ص 82 أن جيش الدولة كان على عهد الملوك الثلاثة الذين سبقوه قاصرا على العرب وأن المنصور جنح إلى تطعيمه بالأعاجم كما فعل المعتصم فألف منهم كتائب متنوعة، والسياق يفيد أن المقصود بالأعاجم الترك والسودان والعبارة تفيد إما أن " العرب كانوا هم أسناد الدولة ودعامتها ومنهم جيشها في الدرجة الأولى أو أن العروبة كانت شاملة الطابع لجميع سكان الدولة وأن العنصر

البربري الذي كان حتما من سكانها كان قد تم اندماجه فيها وكلا الاحتمالين على كل حال ذو دلالة عظيمة في صد العرب والعروبة في هذه البلاد " أنظر محمد عزة دروزة العرب والعروبةج-7)ص.134-135

وبذلك عزم المنصور على توسيع رقعة دولته على حساب بلاد السودان بهذا الجيش.

المنصور يوسع رقعة دولته "فتح السودان 1590 م":

"كانت العلاقات قد توثقت بين بلاد السودان والمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين في القرن 11م واخذ أمراء غانة والنيجر الأعلى يتبادلون الهدايا والسفارات مع سلاطين فاس ومراكش وقام هؤلاء السلاطين بنشر الإسلام بين سكان هذه البلاد وذلك عن طريق البعوث الدينية . ولعب العلماء والفقهاء المغاربة دورا هاما في شر الإسلام والتقاليد المغربية في مدن ولاته وتينبوكتو وكاغوا، ولكن السلطان المنصور آثر أن يفتح هذه البلاد التي استغل أملاحها الغنية الموجودة على الأخص في منطقة تغازي التي كان يجني منها الملك " سكيه ملك كاغوا أرباحا طائلة "

• شرع المنصور في فتح السودان الغربي بتسييره حملة إلى الصحراء السودانية سنة -1581 989هـ وقيل 990 و الأصح 989 هـ فاستولى على بلاد تيكورارين وثوت، وقد أوفد ملك بورنوا وكان مسلما وفدا وهدايا إلى المنصور وطلب إمداده للقيام بحركة جهادية لنشر الإسلام بين القبائل السودانية فاشتراط المنصور أن تكون الحركة باسمه على اعتباره خليفة المسلمين ومن ذرية النبي صلى الله عليه وسلم وأن يدخل الملك نفسه في نطاق بيعته فوافق هذا على ذلك وحينئذ أمدّه بالمال والرجال والسلاح وتمكن هذا من نشر الإسلام في الصحراء السودانية الكبرى في ظل سلطان وخلافة الملك السعدي.

• ولقد أراد المنصور أن يبسط نفوذه على كل ربوع إفريقيا الوسطى وكان في كاغوا إحدى هذه المناطق ملك مسلم اسمه اسحق فامتنع عن الدخول في نطاق هذا السلطان فثار غضب المنصور وجهز عليه حملة قوية اشتبكت مع قوات هذا الملك وألحقت به هزائم

عديدة وأخذت حملة المنصور توطد سيطرتها على أنحاء مملكة اسحق وتطاردته إلى أن أعلن خضوعه وإذعانه وتعهد بالخطبة للمنصور وأداء الجزية السنوية إليه سنة 999 هـ - 1581 أو 1582 م والأصح الأولى، على أن المنصور لم يقرّ الاتفاق وطالب قواده "بالفتح" الغزو "الشامل فعادت حركة المطاردة إلى أن هلك الملك اسحق وتم إخضاع بلاده - وهكذا غدا سلطان المنصور نافذا فيما بين بلاد النوبة شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا (وانتظمت الممالك السودانية في طاعته عام 1590م بعد القضاء على آخر مقاومتها بزعامة آخر ملوك سنغي إسكي نوح .

• وهكذا نجح جيش المنصور في افتتاح السودان وتولى إدارتها ولاية من قبله وبذلك اكتسب المنصور شهرة كبرى إذ أصبحت كلمته نافذة فيما بين بلاد النوبة والمحيط الأطلسي وحملت إليه أحمال التبر والذهب من السودان لأجل ذلك لقب بالذهبي لفيضان الذهب في زمانه وقد ترك الوجود السعدي أثارا هامة بالنسبة للبدلين تمثلت بالنتائج التالية:

• وقف المد الإسلامي العربي في إفريقيا جنوب الصحراء .

• موت الآلاف من الضحايا المسلمين من كلا الطرفين .

• انتعاش الميزانية المغربية مما أعانها على تطوير صناعة السكر وتحسين موانئها البحرية .

• تحطيم ممالك إسلامية إفريقية ومنها دولة سنغي التي كانت مركز إشعاع فكري إسلامي في إفريقيا السوداء لعبت دورا فعالا في نشر الإسلام واللغة العربية بين القبائل الإفريقية الوثنية .

• قتل النخبة السودانية المشبعة بالروح الإسلامية والعربية مما جعل شعوبها تعود إلى الخرافات والبدع الإفريقية ولا تملك من الإسلام إلى اسمه .

- قيام تمازج حضاري بين المغرب وحوضي البحر النيجر، وظهور طبقة من المولدين نتيجة للتزاوج بين الشعبين.

علاقة المنصور بالدول الخارجية:

رسم المنصور صورة جديدة لطبيعة العلاقات التي تربط المغرب الأقصى بالدول الأخرى إبان القرن 16 م بحيث أصبحت هذه العلاقات تتسم بالاحترام المتبادل والاعتراف بالمكانة الدولية، وعليه يمكننا تقييم نوعية العلاقات التي أقامها المنصور على الصعيد الدولي إلى ثلاثة أنواع أ-علاقات متينة تطورت إلى درجة التحالف:

كانت مع بريطانيا الدولة الأوربية الوحيدة التي ظفرت بمثل هذا النوع من العلاقات لأنها تشترك مع المغرب في معاداة إسبانيا، وباعتبارها مصدرا رئيسيا للسلاح المغربي، ومساهما كبيرا في شراء منتجات المغرب من السكر والملح هذا وقد حاولت الملكة اليزابيث أن تقيم حلفا يضم بلادها والدولة العثمانية والمغرب ضد الإمبراطور فليب الثاني الذي أصبح سيد البرتغال بعد وفاة سباستيان غير أن المنصور لم يقبل الدخول في هذا الحلف، وفي الوقت نفسه رغب فليب الثاني في شراء حياض المنصور فتنازل له عن مدينة أصيلا سنة 997 هـ 1589 م.

وهكذا استفاد المنصور من العداء المستحكم بين الإنجليز والإسبان، ولكنه اضطر إلى محالفة الإنجليز عندما اتضحت له نوايا الإسبان في التوسع وطمعهم في ذهب السودان وكاد يتم بينه وبين إيزابيث اتفاق على غزو الهند إسبانية بل على غزو الإسبان لولا وفاته في العام الذي ماتت فيه إيزابيث سنة 1012 هـ 1606 م.

ب-علاقات حسنة:

و قد ارتبطت بها المغرب العثمانية والجزائر العثمانية وهولندا أما فرنسا فلم تتحسن علاقتها بالمغرب إلا بعد اختلافهما مع إسبانيا وبعد وفاة المنصور.

ج-علاقات حرب وعداء :

و هي ما كانت سائدة بين المغرب واسبانيا بسبب استيلائها على طنجة وسبتة ومزگران وإيوائها لبعض اللاجئين السعديين المناوئين لنظام الحكم .

سقوط الدولة السعدية وأسبابه:

وما كان السلطان المنصور يوارى التراب حتى انبعثت الفتنة من أجل تولي السلطنة بين أبنائه الثلاثة، " زيدان، أبو فارس، المأمون "مما أدى إلى تدهور دولة الأشراف السعديين وسقوطها في النهاية.

ولقد بايع أهل فاس زيدان ابن المنصور بالخلافة وبايع أهل مراكش ابنا آخر اسمه أبو فارس كان حاكما عليها فأدى هذا إلى الفتنة والحرب بين الأخوين وقد استعان أبو فارس بأخيه المأمون ولي العهد السابق الذي كان مسجوناً ولما التقى جيشا الأخوين انهزم جيش زيدان وعاد هذا إلى فاس فتبعه المأمون الذي كان يقود جيش أبي فراس واستطاع أن يستولي على فاس ويشرد أخاه عنها، وحينئذ أخذ من الناس البيعة لنفسه وسير المأمون حينئذ حملة على مراكش بقيادة ابنه عبد الله فاستولى عليها وشرّد أباً فارس عنها .وجمع زيدان من ناحية أنصاره واستولى على سجلماسة ثم على بلاد السوس وكاتب أنصاره في مراكش فثاروا بابن المأمون وأوقعوا بجيشه هزائم نكراء وحينئذ جاء زيدان فاستولى عليها، غير أن ابن أخيه كَرَّ عليها ثانية واستردها وشرّد عمه عنها، غير أن أصحاب الحمية تصدوا له لأعماله السيئة وبايعوا محمد بن عبد المؤمن بن محمد الأول بالخلافة وشرّدوا وطرّدوا عبد الله بن المأمون عن مراكش وجاء زيان بحملة جديدة وطرّدوا فاستولى على المدينة وطرّد الخليفة الجديد منها ثم خرج بجموع كبيرة نحو فاس وتمكن من الاستيلاء عليها سنة 1017 هـ / 1611 م وطرّد المأمون وابنه منها، وعندئذ ركب المأمون البحر من العرائش إلى إسبانية مستصرخا ملكها فأمدّه " بالمال والرجال والسلاح بعد أن أخذ منه العهد بالتخلي له عن " ثغر العرائش "وقد استطاع أن يبسط سيطرته على بلاد الريف، ولكن الناس نقموا

منه استتجاده بالإسبان وذلك لهم فثاروا عليه وقتلوه ونهبوا ما جاء به من مال ومتاع سنة 1022 هـ 1616م وقيل أنه قتل على أيد أحد مجاهدي تطوان في عام 1613 م، ولكن الإسبان حققوا أمنبتهم باحتلال العرائش وسط هذه الفتنة الغامرة واستطاع ابن المأمون عبد الله أن يجمع حوله بعض الأنصار ويستولى على فاس ويوطد سلطانه فيها فانقسمت المملكة إلى قسمين قسم مركزه مراكش وعلى رئاسة زيدان وقسم مركزه فاس وعلى رئاسة عبد الله ابن أخيه.

• ولقد حفزت هذه الفتن المتلاحقة الفقيه أبا العباس المعروف بأبي محلي الإدعاء بالمهدويه لنفسه كسب بموجبها أتباع كثيرون زحف بهم على سجلماسة واستولى عليها، فتصدى له زيدان بحملة فقتل معظمها ثم زحف على مراكش واستولى عليها طاردا زيدان منها أو عنها عام 1022-1616 م الذي استصرخ الناس وجمع حوله الجموع وزحف بهم على مراكش فاستولى عليها وقبض على أبي العباس المعروف بأبي محلي فقتله وشرده أنصاره فعاد السلطان فاستتب في مراكش لزيدان مرة أخرى ، " أنظر الاستقصاء ج.110-107-3"

• وممن أثارتهم الفتن المتلاحقة شخص آخر اسمه الشريف أبو الربيع وكانت حركته في فارس ضد عبد الله بن المأمون لأن رجاله كانوا يروعون أهلها ويفجرون فيها ولا يزرهم أحد وقد انضوى إليه جماعة من الناقلين، وحاول عبد الله قمع حركته فأخفق وتمكن الشريف وأنصاره من إيقاع مذبحه مروعة في رجال عبد الله، وقد وثب عليه أحدهم فاغتاله غدرا "أنظر الاستقصاء ج3، ص130-131"

• و لقد بايع الثوار بعد أبي الربيع محمدا بن المأمون أخوا عبد الله الذي يمارس السلطان فنشب بين الأخوين صراع وقتال وتمكن الأول من الاستيلاء على فاس وتثريد أخيه سنة 1028هـ 1622 م ولكن هذا الحد أعاد الكرة مع أنصاره واسترد المدينة وظفر بأخيه وقتله واستأنف ممارسة السلطان واستتب له الأمر في فاس مع استمرار الفتن والإضرابات إلى غاية وفاته سنة 1036 هـ 1630 -م وبعده لم يبق فيها من السعديين أحد.

• وكان هناك زعيم يقود حركة الجهاد ضدّ الإسبان الذين كانوا يحتلون بعض الثغور اسمه أبو عبد الله العياشي وكان قد عظم شأنه حتى بايعه أكابر عصره على الجهاد والقيام بالحق واستطاع تكبيد المحتلين خسائر عظيمة مما بث الأمل والانتعاش في المسلمين اليه وحمل الكثير من القبائل على الدخول في بيعته فأرسل أعيان فاس إليه وفدا يدعونه إليهم فجاء واستولى على فاس وغدت المنطقة الغربية من المغرب الأقصى برمتها في سلطانه، غير أن علاقاته مع الجالية الأندلسية في ثغر سلا كانت سيئة بسبب ما لاحظته منهم من إهمالهم الجهاد وموادة الحاميات المحتملة وبيعهم لها ما تحتاج إليها من المؤونة فاستبقى العلماء فأفتوه بقتالهم فقام بذلك مما جعل فريق منهم يفرّ إلى مراكش وآخر إلى الجزائر وآخر إلى الثغور المحتلة وآخر إلى منطقة زاوية الدلاء.

• ولقد جاء أهل منطقة زاوية الدلاء إلى فاس يشفعون لمن التجأ إليهم فأبى أبو عبد الله قبول شفاعتهم فرجعوا مغاضبين له ثم أعلنوا تمردهم عليه وتهيؤوا للحرب فخرج إليهم وهزمهم ثم ذهب إلى منطقة طنجة للجهاد فلما قفل وجدهم قد تجمعوا ثانية فاشتبك معهم فدارت الدائرة عليه ففرّ إلى عرب الخلط فغدروا به وقتلوه سنة 1051 هـ وأرسلوا رأسه إلى الأندلسيين في سلا، وقد فرح الإفرنج "الاسبان" فرحا شديدا حينما عرفوا أو سمعوا بمقتله حتى أنهم أعطوا البشارة لمن أخبرهم به وأقاموا الزينات ثلاثة أيام.

• أما منطقة مراكش فقد ظلّ السلطان فيها متسببا لزيدان. وقد اهتم هو الآخر لمجاهدة الإفرنج الذي كانوا يسيطرون على ثغور المنطقة، وبعد موته عام 1037 هـ فتولى الملك ابنه أبو مروان عبد الملك فتار عليه أخواه الوليد واحمد منافسين له ووقعت بين الطرفين اشتباكات دموية عديدة، وزحف أحمد على رأس أنصاره إلى فاس فاستولى عليها وقتل محمدا الحاج الدلائي الذي كان يمارس فيها الحكم ولكن قائد المدينة تصدى له واعتقله وظل معتقلا إلى سنة 1044 هـ ثم فر من معتقله حتى قتل سنة 1051 هـ

• ولقد كان عبد الملك الذي تولى حكم منطقة مراكش فاسقا سكييرا فوثب عليه بعض الناس وقتلوه عام 1040 هـ فبويغ أخو الوليد الذي تظاهر بالتقوى والورع ولين الجانب فاكتسب محبة الناس وإقبالهم وكان محبا للعلم والعلماء، غير أنه فتك فتكا ذريعا بإخوته وبني عمه حتى كاد يفنيهم، غير أنه قتل من طرف بعض جنده عند ما رفض تسليم الجند مرتباتهم عام 1045 هـ فبويغ أخوه محمد وقد سار سيرة صالحه حميدة، غير أن دولته كانت ضعيفة الهيبة وكان سلطانه لا يتجاوز مراكش وضواحيها، وقد قتله بعض المتمردين حيث حاول الحد من شوكة عرب الشابانات الذين تنتمي إليهم أمه فقتلوه سنة 1055 هـ وبايعوا أميرهم عبد الكريم بن أبي بكر فكان ذلك آخر عهد السعديين في منطقة مراكش أيضا.

• ولقد اغتتم شخص اسمه ابو حسون السملالي فرصة ضعف السلطان زيدان في إقليم السوس وارتباك حالة السعديين عموما فدعا لنفسه في هذا الإقليم فالتفت حولة معظم قبائله وتمكن من فرض حكمه على إقليم السوس ثم مد نفوذه إلى درعه ثم إلى سجلماسة وظل صاحب الأمر في هذه المنطقة إلى أن تغلب عليه المولى محمد الشريف 1631 م أول ملوك الدولة الشريفية العلوية هذه الدولة التي قامت نتيجة للحركة التي قام بها الشريف العلوى محمد بن علي في سجلماسة سنة 1050 هـ وما تزال مستمرة إلى اليوم في المغرب الأقصى الذي كان يعرف بمراكش أيضا.

قائمة المصادر والمراجع المعتمد عليها:

- الإفرائي، نزهة الحادي... .
- الناصري :أبو العباس أحمد بن خالد الناصري أو السلاوي ، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ج3 و ج4 .
- أبو خلدون ساطع الحصري البلاد العربية والدولة العثمانية .
- إبراهيم شحاته حسن، أطوار العلاقات المغربية العثمانية " قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون 1510-1947 م "
- إبراهيم حركات المغرب عبر التاريخ ج.2.
- عبد الكريم محمود غرايبة تاريخ العرب الحديث.
- زاهية قدورة، تاريخ العرب الحديث.
- محمد عزة دروزة، العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي " العرب والعروبة في المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا ج8-ط2
- محمد عبد السلام بن عبود-تاريخ المغرب " جزآن "
- عامر محمود علي وفارس محمد خير- تاريخ المغرب العربي الحديث" المغرب الأقصى، ليبيا".

الدولة العلوية في المغرب الأقصى

1_ دور النشأة والتوسع :

تنتسب هذه الدولة " العلوية " إلى أشرف تافيلالت إذ حسب الروايات المتعارف عليها أن جدهم الأول وهو مولاي الحسن بن القاسم المعروف بالحسن الداخل المنحدر من سلالة النفس الزكية العلوي كان قد استقر بإقليم تافيلالت يطلب من حجاج سجلماسة فعرف بالصلاح والبركة وتوارث عقبه النفوذ في المنطقة حتى ظهور أمرهم على يدي مولاي الشريف الذي حكم من 1631م _ 1637م والذي حاول الوقوف في وجه الدلائيين وأبي حسون لكن أمره انتهى إلى ترحيله إلى "السوس " بعد أن تغلب عليه "ابيحسون السملالي " عام 1637م بعدها تولى الأمر ابنه مولاي محمد الشريف "1637م _ 1664م الذي توجه نحو الجهات الشمالية الشرقية من المغرب التي تخلوا من أي سلطة مركزية وهناك بدأ محاولة مكنته من جمع الأنصار وبسط نفوذه وقد توغل في المغرب الأوسط حتى نواحي " عين ماضي " مركز الطريقة التيجانية ومدّ نفوذه كذلك على مناطق " تافيلالت " وأعالي الملوية لكنه اصطدم بقوة أخيه مولاي الرشيد الناشئة فقضى نحبه في موقعة يسهل الإنقاذ عام 1664م .

هذا وتجمع مصادر أخرى على حقائق تاريخية قريبة جدا مما سبق الإشارة إليه حيث تشير إلى أن هذه الدولة الشريفة قامت نتيجة الحركة التي قام بها الشريف العلوي محمد بن علي في سجلماسه سنة 1050م . وما تزال مستمرة إلى اليوم في المغرب الأقصى _ ورأس هذه الأسرة المالكة هو المولى * حسن بن القاسم.

*ولقد لقب مؤلف الاستقصاء ملوك الدولة العلوية إلى الحسن بن محمد بلقب أمير المؤمنين. ولم يذكر أن الملوك كانوا يتلقبون بهذا اللقب فعلا، ثم لقب عبد العزيز وهو آخر من ذكره منهم بلقب المولى فقط، وهو اللقب الذي لقب به جميع من سبقه أيضا بالإضافة إلى لقب أمير المؤمنين امتدادا للقب رأس أسرته المولى حسن بن قاسم. " أنظر محمد عزة دروزة _ العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي " العرب والعروبة في المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبية " ط2 _ ج8 _ منشورات المكتبة والمطبعة العصرية في صيدا، لبنان _ 1401 هـ / 1981م. ص، 145.

وقد جاء إلى المغرب الأقصى من الحجاز في القرن السابع الهجري 7هـ في عهد الدولة المرينية وتوطن في سجلماسة وأخذت ذريته تبرز في مجال الواجهة فيها حتى كان زعيمها من أوجه أعيان سجلماسة يقصده أهل المغرب في المهمات ويستشفعون به في الخطوب. ولقد كان المولى الشريف علي مواليا لأبي حسون الذي استولى على بلاد السوس وسجلماسة في آخر أيام الدولة السعدية. وقد أخذ رجاله يأتون إلى الشريف يشكون أمرهم ويطلبون إنقاذهم فأخذ يتحرك بسبيل ذلك فما كان من أبي حسون إلا أن اعتقله وحينئذ ثار ابنه المولى محمد على رأس جمع من الأنصار واستطاع أن يجلي أبا حسون عن سجلماسة ويقوم سلطانه فيها عام 1040هـ ثم أخذ ينشر دعوته حتى بايعه جميع أهل السوس فكان ذلك بدء قيام هذه الدولة .

وفي مصادر أخرى وجدناها تقول : أنه منذ سنة 1544م ومراكش أي بلاد المغرب الأقصى خاضعة لحكم أسرة علوية من الأشراف الحسينيين وهم " بنو سعد " وقد دام ملك هؤلاء حتى سنة 1644م عندما خلفهم بنو فلال الحسنيون الذين لا يزالون يحكمون البلاد إلى اليوم حكما اسما ، ويحمل كل من ممثلي هذه الأسرة لقب " الخليفة وأمير المؤمنين " وهم يقيمون سلطانهم على أساس من مبدأ الشرعية المتمثل في تحدرهم من الرسول صلى الله عليه وسلم . ومن هنا جاز لنا في الحق أن ندعوهم شيعة _ ولكن العلويين المراكشيين لم تكن لهم ، في يوم من الأيام أية صلة بالتطور الديني الذي عرفه الشيعة في الشرق، وفي جنوبي بلاد العرب وعلى الخصوص في فارس. والواقع أن مذهب مالك السني الصارم هو الغالب على مراكش شأنه في شمالي افريقية كلها.

_ وتشير هذه المصادر كذلك إلى أن الدولة العلوية هذه ظهرت إلى حيز الوجود بعد ظهور حولاي الرشيد وهو رأس العشيرة الشريفة الحسنية في تافيلالت بعد مصرع آخر بني سعد عام 1660م فقضي شيئا فشيئا على سلطة الحكام الصغار ثم أن أخاه وخليفته.

إسماعيل " 1672م _ 1727م " أنشأ جيشا قويا من الرقيق الزنجي أقسم أفراده يمين الإخلاص على " صحيح البخاري " ومن هنا عرفوا بعبيد البخاري " _ " أو عسكر البخاري "

2-مولاي الرشيد 1664_1672م:

ظل وبقي ملتزما ببيعة أخيه محمد الشريف في حياة أبيه ثم تحرر منها وانتقل في ربوع المغرب قبل أن يستقر في بني يزناسن * حيث أسس قوة مستقلة بعد ما تمكن من القضاء على اليهودي " ابن مشعل " وبعد أن قضى على أخيه أصبح له الأمر فألف جيشا من قبائل الجهات الشرقية من المغرب التي عرفت " بالشراقة " وبعد أن استحال عليه التوسع شرقا وضع مخططا لفتح المغرب، فجعل "تازة" قاعدة عسكرية، ومنها توجه لفتح "فاس" التي دخلها في عام 1665م. بعدها توجه للقضاء على ثورة ضده بسجلماسة ومنها تمكن من القضاء على الدلائيين وأخضع الثائرين بالريف وجنوب المغرب، فدان له المغرب، وقد تميزت سياسته بكونه أول مؤسس للدولة العلوية وذلك للعوامل التالية :

أ- شخصيته القوية ومهارته الحربية وحنكته السياسة.

ب- توجهه إلى مناطق تخلو من حكم مركزي استطاع أن يكون بها قوته وأن ينطلق منها للاستيلاء على المغرب بكامله.

ج- ظروف المغرب المضطربة التي ساعدته إلى حد كبير على مواجهة أعدائه والقضاء على منافسيه.

ومما رواه مؤلف الاستقصاء في سياق سيرة المولى إسماعيل أنه من أقوى ملوك الدولة.... وقد أحيأ سنة الجهاد ضد الأاسبان والبرتغال الذين كانوا يحتلون بعض الثغور واستطاعت كتائب

*ارجع إلى كتاب دراسات في الملكية العقارية للدكتور ناصر الدين سعيدوني ص: 30,32,34,38,39 -مراجعة معمقة لنفس المرجع من ص:40 إلى 61-كتاب إبراهيم شحاتة حسن، أطور العلاقات المغربية العثمانية. قرأه في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (1510-1947) منشأة المعارف الإسكندرية مصر 1981م ص 394 وما بعدها.

الجهاد التي كان يسيروها إزعاج المحتلين بحركاتهم. وكان محبا للعلم والعلماء سخيا على الأدباء فأزحم بلاطه بهم. وقد حفر كثيرا من الآبار وأنشأ كثيرا من البرك في طريق الحج¹.

المولي إسماعيل الذي تولى الملك بعد الرشيد هو أطوال ملوك هذه الدولة هذا كما هو أعظمهم شأنًا وقوة وسلطانًا.²

_ وقد كان يقيم في مكناسة قبل تولية الملك فعمرها وحصنها واتخذها عاصمة له ، وقد عني بأعمارها كثيرا حتى غدت من أعظم العواصم . وأنشأ فيها قلعة ضخمة ما تزال قائمة كالجبل الشامخ برغم ما طرأ عليها من تهديم وتدمير.³

و بعد هذا التعريف الموجز لمولاي إسماعيل يمكننا أن نقول عن سياسة

3- سياسة مولاي إسماعيل 1672-1727 م:

سياسته الداخلية والتي تحكمت فيها عدة عوامل, منها:

أ_ مميزات شخصيته التي اتصفت بسعة الثقافة واكتساب التجربة والصرامة في التسيير والأبهة في مظاهر الملك.

ب_ تمكنه من القضاء على منافسيه في السلطة وبالتالي القضاء على الثورات منها ثورة ابن أخيه أحمد بن محرز وقد انتقض أو انتقض عليه أربعة من أخوته واثنتان من أبنائه وأحد أبناء أخيه ، وهو أحمد بن محرز، وقد اقتحمت قواته مراكش العاصمة الثانية ثلاث مرات وعاشت فيها ، وحاصرت فاس أكثر من مرة وعاقبتها.

ج_ تمكنه من إخضاع الثائرين والقضاء على الفتن وتوسيع بلاد المخزن ومن أهم الثورات التي تمكن من قمعها بعد جهود شاقة ثورات منطقة الريف والأطلس. وقد اضطر لتهدية الأمور أن ينقل

1- أنظر سيرته في الاستقصاء .. الجزء 4_ ص 31

2- انظر الاستقصاء الجزء 4. ص 14 ، و 16 و 17 و 30

3- محمد عزة دوروزة العرب و العروبة في حقبة التغلب التركي... المرجع السابق

عشائر وقبائل من أماكنها وأن يقر " يسكن " الحاميات العسكرية في المناطق الجبلية الحصينة . وقد استعمل في تثبيت الثائرين السلاح الناري والمدفعية وقد أمكنه إخضاع كامل المغرب لسلطة المخزن.

د_تكوين جيش منظم وقادر على فرض سلطته والمحافظة على الهدوء والأمن في الداخل والتصدي للنصارى على السواحل وبذلك حاول أن يكون جيشا يرتبط عن طريق الولاء به شخصيا وقسمه إلى مجموعات حسب الأصول والاختصاصات, فهناك:

1_ **جيش الشارقة:** "قبائل منطقة تلمسان " يتألف من فرسان الجهات الشرقية وأكثره ينتمي إلى منطقة تلمسان ، وقد ورثه عن أخيه مولاي الرشيد .

2_ **جيش الوداية أو الودايا:** يتشكل من فرسان القبائل العربية التي تنتسب إلى " معقل " بالجنوب والتي كانت في خدمة الدول السبابة وقد عرفوا بالودايا نسبة إلى قبيلة الودايا التي كانت أول من تشكل منها هذا الجيش .

3_ **الأندلسيون والأعلاج والنصارى المرتزقة:**

وقد اكتسبوا أهميتهم لمهارتهم في استعمال السلاح الناري واختصاصهم في استعمال المدفعية ولهذا كلفوا بالمهمات الصعبة واستخدموا في الحملات الانتقامية.

4_ **جيش عبيد البخاري:**

وهم من عبيد السودان كانت لهم وضعية خاصة إذ أصبحوا أرقاء طاعة أسيادهم. وقد سمو جيش البخاري لأن أفرادهم أقسموا يمين الولاء على صحيح البخاري، وحملوه معهم تيمنا والتزاما. وقد خضعوا لتدريبات صارمة وتنظيمات محكمة، جعلتهم أشبه شيء بفرق الجيش الانكشاري، وان كان مؤرخو العصر شبهوهم بأترك المعتصم.

وقد بدأ بتنظيم هذا الجيش منذ سنة 1688م وزود بالمدفعية وبدأ جمعهم وتوزيعهم على القلاع والحصون. فجعل مولاي إسماعيل في كل حصن مابين 400 إلى 500 جندي من جند البخاري وكلفه من تجريد القبائل من السلاح والخيول واستخلاص الأعشار والمغانم السهر على تأمين الطرق وانتقال القوافل وقد أمكن جمع عدة آلاف ، وقد نهز عددهم مع وفاة مولاي إسماعيل 150 ألف .

ويعود السبب في تكوين هذا الجيش إلى رغبة مولاي إسماعيل في تكوين جيش لا يرتبط إلا به، وليس له أصول ومصالح أو عصبيات في المغرب.

5_ التضييق على النصارى بالسواحل واسترجاع العديد من المواقع التي كانوا يحتلونها ، بفضل جيش البخاري والمتطوعين وفرسان الشراقة والأندلسيين والأعلاج تمكن مولاي إسماعيل من استرجاع المعمورة " المهديّة شمال الربط " عام 1681م من الإسبان وتخلي لهم الانجليز بعد ممارسة الضغط على طنجة عام 1684م .

كما استرجع مولاي إسماعيل العرائش سنة 1689م بعد حصار دام خمسة (5) أشهر وقد غنم فيها أسلحة وذخائر، كما استرجع أصيلا عام 1691م وأمر بتعميرها بعد أن هدمها الإسبان أن هذا الجيش قد أدى لمولاي إسماعيل خدمات عظيمة وكان من أسباب عظمة عهده وانتشار سلطانه وإن كان صار بعده نكبة على الدولة على نحو ما كان من أمر الترك في عهد المعتصم العباسي وخلفائه¹.

ومما يجب الإشارة إليه في هذا المضمار زيارة مولاي إسماعيل هذه العثور وعني بترميم قلاعها وأبراجها وشحنها بالمجاهدين والمدافع².

1 - محمد عزة دورزه المصدر السابق _ص 149 .

2 - نفسه ص 150.

لكنه لم يقو على تصفية بقية المراكز المسيحية على الشاطئ فبقيت المليلة وحصن بادس وحصن الحسيمة وسبتة بيد الاسبان كما بقي حصن مزغزان بيد البرتغاليين على ساحل المحيط الأطلسي.

ويعود السبب إلى بقاء هذه المراكز لقربها من اسبانيا والبرتغال ولسهولة إمدادها بالحاميات والعتاد ولحصانتها الطبيعية فهي تقع في أشباه جزر أو جزر على الشاطئ.

6_ إقامته للمنشآت العمرانية والتحصينات العسكرية فقد أنشأ العديد من المنشآت العمرانية العظيمة والكثيرة من مساجد ومدارس وقصور، وكان عنده خمسة وعشرون (25) ألف أسير أوروبي لم تسمح نفسه بفساد أحد منهم فكان يستخدمهم في إنشاءاته. وقد عني خاصة بإنشاء القلاع في مختلف أنحاء المغرب ولاسيما في مناطق القبائل العربية والبربرية التي كان يكثر فيها التمرد حتى بلغ ما أنشأه من القلاع الكبيرة ستا وسبعين (76) شحنها بثمانين (80) ألفا من جيش عبيد البخاري، وضمن بها الأمن في هذه المناطق¹.

7_ بناؤه لمدينة مكناس التي اتخذها عاصمة له.

8_ غزوه لصحراء السوس حتى بلغ تخوم السودان وقدم عليه فيها وفود القبائل العربية التي كانت مستقرة هناك مثل أولاد دليم وبربوش والمغافرة ومطاع وجرار وغيرهم من قبائل معقل وأدوا طاعتهم. وكان في الوفد الشيخ بكار المغفري وكان معه ابنة له ذات جمال وأدب وفقه فأهداها للسلطان فتزوجها.

9_ غزوه منطقة تلمسان بالجزائر العثمانية ، وقدم عليه وفود القبائل العربية التي كانت مستقرة فيها مثل ذوي منبع ودخيسة وحميان والمهاية والعمور، وأولاد جرير وسفونة وبني عامر

¹ - محمد عزة دروزه المصدر السابق ص 150 وانظر كذلك الاستقصاء المصدر السابق نفسه .

والجشم...الخ ثم وقع الصلح بينه وبين والى الجزائر على بقاء كل بلاد على حدودها " كان رائده في غزو الجزائر والبال عليها قبائل بنو عامر بن زغبة "

10_ إشتغاله كثيرا بالبربر لتمردهم على سلطة في بداية حكمه حيث غزا مناطقهم المتعددة مرة بعد مرة وتمكن من كسر شوكتهم بعد عناء .

11_ تعيين بعض أولاده حكاما على الأقاليم ورتب لكل منهم وزيرا ومدبرا وحامية من العبيد، وقد أدى هذا التدبير إلى تنازع الإخوة على مناطق الحكم في حياته وعلى الملك بعد موته.

4_ سياية المغرب الأقصى الخارجية في عهد مولاي إسماعيل :

تأثيرات علاقات المغرب الدولية في عهد مولاي إسماعيل بثلاث مؤثرات بارزة هي:

_ موقف الدول الأوربية من الصراع الاسباني المغربي.

_ سياسة التحالفات الأوربية ومقدار تأثيرها على الأوضاع في المغرب.

_ توسع التبادل التجاري بين المغرب والخارج،

_ وقد استغل مولاي إسماعيل الخلاف الذي استحكم بين فرنسا من جهة وبين بريطانيا واسبانيا من جهة أخرى، فتقرب من الفرنسيين ليضمن وقوفهم إلى جانبه ضد الاسبان وعزز هذا التقارب بإرسال سفارة رسمية إلى ملك فرنسا لويس الرابع عشر نجحت في عقد معاهدة تجارية تضمنت اتفاقيات سياسية للإحلال السلام بين الدولتين وتبادل المساعدات أثناء غارات القراصنة ، ومنح الهيئة القنصلية الفرنسية حق مقاضاة رعاياها في المغرب الأقصى كما أوجد المولي إسماعيل في حروب لويس 14 الأوربية آنذاك سبيلا إلى الاعتراف بسلطته كقوة إسلامية دولية، نظير ما قدمه من تأييد وعون للملك الفرنسي أثناء هذه الحروب. وسعي من جديد إلى الوساطة الفرنسية

للحصول على الاعتراف بمركزه الدولي في إطار الندية مع السلطان العثماني ومع ذلك لم يتحقق شيء محدد من هذا الهدف في إطار مراوغة الملك الفرنسي في ردوده على المسعى المغربي¹.

السبب في ذلك يعود إلى أن المالك مولاي إسماعيل في حقيقة أمره كان مغرورا والدليل على ذلك قوله: ((... لا يوجد على الأرض من قوى غير الباب العالي إمبراطور فرنسا وأنا...))

فلعل هذه المقولة في حد ذاتها كانت وراء تعثر التصديق مرتين على مشروع اتفاقية شاملة مع فرنسا في سنة 1681م (سفارة الحاج محمد تميم) وفي سنة 1698م (سفارة ابن عائشة)

_ وكانت نفسي المقولة حتما وراء الصفحة المتوترة من العلاقات المغربية العثمانية خلال الفترة ذاتها².

_ أما بريطانيا فقد دفعها العامل التجاري إلى عقد معاهدة تجارية مع مولاي إسماعيل في عام 1716م جعلتها حتى فرض الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى عام 1712م أكبر عميل في تجارة المغرب.

أ_ حملة مولاي إسماعيل الهجومية الثانية على الجزائر عام 1691م / 1992م / 1103هـ:

خرج السلطان في هذه الحملة على رأس جميع قواته ومدفيعته في اتجاه تلمسان. وفي ذات الوقت كان خروج باي تونس "محمد" على رأس قواته للاحتلال قسنطينة في شرق الجزائر. ومع ذلك فإن الداوي شعبان نجح في التحرك سريعا في اتجاه الشرق وتخلص من التهديد التونسي كما نجح في الارتداد بقواته غربا لنجدة تلمسان في الوقت المناسب بل لحق الذي شعبان بالمولى إسماعيل وجيشه قبل عبور " نهر ملوية " وأنزل بهذا الجيش هزيمة قادمة خلفت خمسة (05) آلاف قتيل

1- الاطلاع أكثر عن الموضوع أنظر إبراهيم شحاته حسن أطوار العلاقات المغربية العثمانية " قراءة في التاريخ المغربي عبر خمسة قرون" 1510_

1947م " منشأة المعارف بالإسكندرية ، مصر_ 1981م _ ص 431

2- نفسه ص 429.

من رجال المولى إسماعيل وتابع الداى شعبان المولى إسماعيل في تقهقره على الطريق إلى فاس مما جعل المولى إسماعيل يطلب الصلح¹.

لا جدال في أن أحداث تونس في نهاية عهد الأسرة المرادية (1675 _ 1702م) كانت وراء تشجيع المولى إسماعيل على القيام بحملته ضد الجزائر عام 1691م 1692م بعد أن كانت مشروعا مؤجلا " اقتضت أوضاعه الداخلية وأمن حدوده وسواحلها. (أنظر إبراهيم شحاته حسن _ المرجع السابق ص _ 421، 422،)

ألقي الداى حجي شعبان خوجه (خطابا في معسكر أمام تونس) في 1 سبتمبر 1694م 11 شعبان 1106هـ إتهم فيه صراحة الباى التونسي (محمد باي) بالتآمر مع المولى إسماعيل ضد الجزائر وطرابلس _ وانطلق الاتهام من واقع التعبير الذي أحدثه باي تونس في نظام الحكم وميله إلى إحلال العرب محل الترك في كوادر الدولة وحكمها لاسيما العسكرية منها فضلا عن اتفاهه مع المغرب ولقائه مع سلطانه المولى إسماعيل الموسوم أيضا (بالحاكم العربي) وأن الأخير قد أغراه باي تونس بامتلاك بلدان المغرب الكبير حتى مصر وقاهرته العظمي مما يعني... إعادة البلاد العثمانية في أيدي السواعد العربية ...وبما يتناقض من مبدأ السيادة العثمانية وبخرق نظام حكمها ويخون بابها العالي. " أنظر إبراهيم شحاته حسن المرجع السابق _ ص : 436 _ 437.)

طبيعة العلاقات بين مولاي إسماعيل والجزائر:

عرفت العلاقات الجزائرية المغربية في عهد مولاي إسماعيل صلوات ودية خلال الفترة الممتدة ما بين 1682م 1626م لم يمنع تعكرها توتر فجائي لسبب طارئ أو سبب دسياسة أوربية حسبما ذهب الحديث بين القنصل الفرنسي " سانت أمان " والقائد على عبد الله في عام 1682م إلى حدّ

¹ - إبراهيم شحاته حسن (المرجع السابق) ص : 421.

القول بإمكان إخفاء خبر المساعدة الفرنسية للمغرب في مشروعاتها الحربية ضد الجزائر تقاديا للتضرر الذي يبيده الشعب المغربي من قيام " تحالف مع النصارى في حرب ضد المسلمين " ¹ .

_ كانت قضية تلمسان مثار نزاع مستمر بين حكام الجزائر العثمانية وبين حكام المغرب الأقصى ومنهم مولاي إسماعيل الذي شن عدة حملات على الجزائر طمعا في التوسع على حدودها الغربية وهنا نركز على الحملتين الهجوميتين الكبيرتين الثانية والثالثة اللتين شنهما على الجزائر .

حملة مولاي إسماعيل الثالثة على الجزائر يوم 28 أبريل 1701م الموافق ل 20 ذي القعدة 1112هـ:

_ وقعت المعركة الفاصلة لهذه الحملة في موقع على مقربة من الغديوة وانتهت في أربع ساعات بسحق القوات المغربية التي راح من ضحاياها (3) ثلاثة آلاف جندي و (500) خمسمائة قائد ، فضلا عن إصابة السلطان مولاي إسماعيل نفسه بجرح بالغ ووقوعه أسيرا في أيدي أعدائه .

وكان إطلاق سراح السلطان بعد تعهده من جديد بالتخلي عن مشروعاته العدوانية ضد حكام الجزائر، والافرار بجد تافئة المتفق عليه في المعاهدات السابقة .

_ وكانت النتيجة الكبرى لهذه المعركة هي :

_ أن النصر الجزائري فيها استكملة الجزائريون بنصر كبير بل أكبر ضد الاسبان في وهران عام 1707م التي دام احتلالها نحو قرنين من الزمان.

وكان دوي هذا النصر الأخير له صداه الكبير على المولى إسماعيل، فسارع إلى إرسال سفارة إلى اسطنبول للتهنئة بالنصر العثماني* .

1- إبراهيم شحاته حسن المرجع السابق ص 421.

وهنا يشير بعض المؤرخين أن هذه التهئة كانت إشارة ربما من باب الترغيب الإجباري للسلطان العثماني على التسليم بندية السلطان العلوي له. ولكن حدث ما لم يتوقعه المولى إسماعيل حين وجد رسالة للسلطان العثماني ترد مخاطبة اياه ب " حاكم ولاية فاس "

3_ علاقات مولاي إسماعيل مع الدولة العثمانية :

تحكمت فيها عدة عوامل وأسباب منها ندية مولاي إسماعيل التي كان يسعى إلى تثبيتها مع السلطان العثماني كما سبق الإشارة لذلك وعلاقة المغرب الأقصى مع الجزائر العثمانية ومحاولة المولى إسماعيل الاستيلاء على الغرب الجزائري وشنه لعدة هجومات عليه ، وقد ناشد السلطان العثماني المولى إسماعيل بالكف عن التدخل في أراضي الابالة العثمانية (الجزائرية) وعقد أوصل الود معها. وتعدت الوساطة العثمانية آنذاك حدود العلاقات المغربية الجزائرية إلى تكرار السعي الذي سبقت إليه في عام 1693م لإصلاح ما بين المغرب وفرنسا وسعى بالفعل المولى إسماعيل إلى تغيير موقفه من فرنسا إلى حد تغيير وزيره العطار الريفي بالوزير ابن عائشة المقرب إلى فرنسا¹.

وبين الحملة الهجومية الكبرى الثالثة " 1691م " والحملة الهجومية الكبرى الثالثة عام 1701م فترة فاصلة من 10 عشر سنوات عرفت العلاقات بين الدولتين فترة وفاق وهدوء تام سرعان ما عكرتها أحداث توتر حربي ما بين 1693م و1696م على الحدود بين البلديين. ظهر من طرف المغرب على حد قول الناصري عن أحداها " .. ودخلت سنة خمس ومائة وألف، فلم يكن فيها شيء يذكر. ثم دخلت سنة ست ومائة وألف، وفي ربيع منها خرج المولى زيدان ابن السلطان بالعساكر قاصدا ناحية تلمسان ، بعد أن قتل النائب بفاس أبالعباس أحمد السلاوي ، فقاتل الترك ونهب ، ورجع ... "

1_ نفسه ص 428

* _ كانت هذه التهئة للسلطان العثماني أحمد الثالث عام 1703م

_ وكانت ذريعة المغرب شأن هذه الأحداث المناوشاتية " ذهاب القوات المغربية عام 1693م إلى الأراضي الجزائرية حول وهران باسم تأديب قبيلة بني عامر وفي إطار الحرب ضد اسبانيا وليس باسم محاربة الجزائر , وعرفت تلمسان سنة 1692م تلك الحادثة المشار إليها على لسان الناصري، وقد تمت أيضا باسم آخر وهو : الاستطلاع والتحقيق من أخبار عن استعدادات جزائرية للهجوم على المغرب " أنظر إبراهيم شحاته حسن المرجع السابق ص 437 436 ."

أوضاع المغرب الأقصى بعد وفاة مولاي إسماعيل:

هذا ولم يكد المولى إسماعيل يموت يوم 20 مارس سنة 1137هـ / 1727م حتى دبت الفتنة والنزاع بين أولاده وتلاحقت حلقاته. وقد انقسم جيشه إلى فرق بالتبعية لمناصرة الإخوة في تنافسهم واستمرت الفتن مشتعلة أكثر من ثلاثين سنة وكان المتنازعون أبا العباس وأبا مروان وعبد الله وأبا الحسن والمستضى¹. وكثرت بينهم الاشتباكات ، وكان عبد الله أكثر هؤلاء نشاطا وحيوية وفتكا وقسوة ومصادرة واستطاع في النهاية أن يوطد حكمه سبع عشرة (17) سنة 1757 1792 م وقد خلع وعاد ثلاث مرات ومما يجمع عليه المؤرخون أن الأمير محمد بن عبد الله كان صورة مصغرة عن المولى إسماعيل في حنكته السياسية واهتمامه وجعله الدولة المغربية منسجمة مع الوجه الإسلامي للعلاقات المغربية التي بلغت أوج متانتها في عهده .

ومما يجب الإشارة إليه دون تجاهله هو الدور الذي أعده جيش عبيد البخاري بعد وفاة مولاي إسماعيل حيث نلاحظ بأنه تحول حقيقة إلى جيش من المرتزقة وأتصف بنفس الصفات التي كان يتصف بها الجنس الانكشاري في الدولة العثمانية إبان ضعفها حيث أصبح أقرب إلى اللصوصية والابتزاز والارتزاق أكثر من الجيش الشريف الذي كان عماد الدولة وصانع انتصاراتها وهيبته وهذا ما بينه الكثير من المؤرخين وأجمعوا على أن جيش عبيد البخاري كانوا يتقاضون الذي يناصرونه أعطيات كبيرة. ولم يكن أحيانا في الخزينة ما يكفي فيعمد الملك إلى مصادرة أموال الناس لإرضاء العبيد الذين كانت مطامعهم تشتد تبعا لاشتداد التنافس. وأحيانا كان العبيد

¹ - أنظر الاستقصاء الجزء 4 من ص 54 إلى ص 91

يعمدون إلى خلع الملك بسبب عجزه عن إرضائهم بالمال. وكان الذي يخلع ثم يعود ثانية يعمد إلى التنكيل بمناوئية من العبيد وغيرهم قتلًا ونهبًا وسجنًا¹.

¹ - محمد عزة دروزة المصدر السابق ص 153

قائمة المصادر و المرجع المعتمد عليها:

- _ الإفرائي، نزهة الحادي .
- _ الناصري " أبو العباس أحمد بن خالد الناصري أو السلاوي " الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى . ج 4 .
- _ أبو خلدون ساطع الحصري _ البلاد العربية و الدولة العثمانية .
- _ ناصر الدين سعيدوني دراسات في الملكية العقارية .
- _ إبراهيم حركات _ المغرب عبر التاريخ _ ج 2 ج 3 .
- _ إبراهيم شحاته حسن أطوار العلاقات المغربية العثمانية " قرأة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (1510 _ 1947م).
- _ محمد عبد السلام بن عبود تاريخ المغرب " جزآن " .
- _ ابن زيدان عبد الرحمن _ الدرر الفاخرة بمآثر الملوك العلويين بفاس الزاهرة.
- _ ابن عذارى (المراكشي) البيان المغرب في إخبار الأندلس و المغرب ج-4-ط 2, تحقيق و مراجعة د- إحسان عباس , دار الثقافة بيروت لبنان 1983م ص 90.